وزارة الثقافة والارشاد القومي - الإقليم السوري
مديرية التأليف والترجمة

يحدثونك من القلب

قدري العمر

السلسلة القصصية


جامعة الإسكندرية

يحدّثونك من القلب

تأليف

قدري العمر

المقدمة

للمليون عربي من أهل فلسطين ، مليون قصة ، كل واحدة منها كائن حي ... فإذا تحدث اليك بها الفلسطيني ، سمعت حديثاً يحمل خفقة القلب ، ورنة الالم ، وزئيراً حاقداً من زئير الاسد !... فلا يأتي على آخر الحديث حتى ترى الذي رأى ، وحتى تعيش الحياة التي عاش ... فإذا انتهى الحديث ، وفارقك صاحبه ، سكن حديثه في النفس زمناً لا يقاس الا بمقدار ما أوتيت النفس من الحس الصادق المرهف . .

تسمع بعض هذه القصص من الاصدقاء الذين يعملون معك ، وتسمع بعضها في المخيمات التي أعدت للفلسطينيين في ضواحي المدن السورية . .

فاذا زرت تلك المخيمات ، قرأت الذي تسمع على جبين كل امرأة وكل طفل وكل رجل ؛ وقد يخيل اليك وأنت في المخيم ، أن

الليـل والنهار ، والصبـاح والمســاء كلها تشركك بما تسمع وبما تقرأ ! ..

وكنت من أولئك الذين ظفروا بمئات من هذه القصص ، ومن الذين أيقنوا أنها قطعة من حياة العرب في هذا الجيل ، قوية الايحاء والايقاظ ، وأنها على ما فيهـا من فجـائع وآلام ، اذا كتبت ، أو كتب بعضها ، يقرؤها أهل الكرب والنكبة ، فيجدون فيها زفرة من زفراتهم ، تنفس عنهم بعض الغم والكرب ، ويقرؤها العرب من غير الفلسطينيين فيزيد احســـاسهم بالنكبـة ، ويلمحون بطولة هؤلاء الاخوان الفلسطينيين الذين خاضوا بسلاح ضعيف ، معارك معجزة ، وقعت بين بيوتهم ومدنهم وقراهم وحول أطفالهم ونسائهم ؛ ثم أرغموا على النزوح عن ديار عاشوا فيها قروناً وأجيالاً ..

لذلك انتويت منذ حين طويل أن أعني بها ، وأعمل على نشرها!.. لكن عملي الشاغل حال دون هـذه الامنيـة زمناً ، حتى لم يكن باستطاعتي أن أفكر بها ساعة من نهار ..

فلما تفرغت !.. وأصبحت أستطيع أن أجعلها شاغلي الوحيد، رجعت الى ما كان عندي منها ، وعدت الى المخيمات أسمع من جديد الى ما سمعته من قبل ..

ثم أقدمت على الكتابة ، وأنا أظن أن العمل سهل يسير ،

فما بدأت بالقصة الاولى وتنصفتها ، حتى علمت أنني أمام جهد شاق !..

كنت مقيداً بما تحدث الي به الفلسطينيون أو كتبوه ، وكان هذا القيد ، يقفني في منتصف الطريق عند تحويل التاريخ ووقائعه الى فن .. فأجد الملكات الفنية قد سلبت حريتها فتعثر الابداع . .

كنت أفرح بما أنتجت في المساء ، فاذا عدت الى انتاجي في الصباح لم أجد فيه ما أفرحني أمس ، وراعني أن أرى انحرافاً عن الاصل ؛ فأعود وأعرضه عرضاً جديداً ؛ وقد أكرر العرض ثالثة ورابعة ، ولا أزال كذلك حتى أطمئن الى أنني خلصت من ذلك الانحراف ، لا يمضني منه الا أنه كان على حساب البيان !. .

فليطمئن القارىء الى أنني لم أتزحزح عما سمعت من أفواه الفلسطينيين ، وعما كتبوه !.. فليس لي في هـذه القصص سوى محاولة في طريقة العرض ، وقليل من الشعور الغامض لمحته يشير الي من وراء الشعور الظاهر ، وفكرة ظهرت أغصانها وخفيت جذورهـا فأعطيتها بعض جذورها ، وشيء من الاحساس بصرت به يطل من وراء الاحساس الطـافي ، وناظم من الجو حاولت ما استطعت أن أقيم منه قاسماً مشتركاً قد يسهل نقل الحياة من نفس الى نفس !...

وستجد أيهـا القارىء في قصـة « الفن في مخيم اللاجئين » كيف

يتضب معين الفن عندما يعظم المصاب ... وفي « كنت مريضاً عاطلاً » آلام البطالة .. وفي « كنت طالباً في لندن » حياة الطالب في الغربة مع النكبة .. وفي « عرس البطل » صراعاً مريراً مع الصهاينة .. وفي « رجعت الى عكا » مغامرة الفلسطيني في الرجوع الى أمه وأبيه ... وفي « وصلت الي دمشق » العناء الشاق في ترميم الحياة ... وفي « كنت في اللد » جانباً من شمس فلسطين وهي تأفل .. وفي « دير ياسين » كيف يتحول اليهودي الى جزار ... وفي « كنت أسيراً » عجائب هذا الاسر ... وفي « من حس لي الاخوين » لوعة الام اذ يفارقها ولداها بغتة ...

وبعد فهذه القصص العشر ، قد تعرض جزءاً كبيراً من الحياة التي عاشها أخوك الفلسطيني في نكباته ، وقد عملت جهدي في نقلها اليك عسى أن يكون لها أثر راض ... وبالله التوفيق .

قدري العمر

★ ★ ★

الفن في مخيم اللاجئين

هذه قطعة من حياة لاجئة ، عرفت بموهبتها الفنية، وكانت قد غفلت عن لوحاتها يوم النكبة، فتركتها على الجدار في دارها ، في (دار الهباب – يافا).

ثم عاشت هي وزوجها في مخيم اللاجئين في دمشق ثلاث سنين ، لم تستطع خلالها ان ترسم صورة واحدة. ثم ولدت طفلا ، فعادت اليها نفسها فرسمت صوراً رائعة جديدة ، ثم تيسرت لها حياة مستريحة .

في ضاحية دمشق ، في مخيم اللاجئين ، جلس الزوج وزوجه أول الليل يتحدثان في الغلس :

الزوج : ليتك ترسمين

الزوجة : ليتني ارسم

الزوج : ارسمي

الزوجة : حاولت أن ارسم ، وكررت المحاولة؛ وهاقد انقضت سنتان على النكبة ، ولم أستطع أن ارسم ظلاً موحياً أو خطاً مبصراً.

الزوج : كانت لوحاتك رائعة يوم كنا في بلدنا .

الزوجة : « في يأس » كانت رائعة ...

الزوج : أين ذهب ذلك الفن الغزير ؟

الزوجة : ضاع ... جف ... غاض...

الزوج : « في ابتسامة ساخرة » غاض يوم احتجنا اليه .

الزوجة : نعم !.. فقد كان النبع يجري يوم كنت أرسم نفسي !..
أما اليوم ، فإني وإياك نبحث في الرسم عن الدرهم والدينار .

يصمت الزوج ، ويبدو عليه وجوم يغرق فيه بين الصحو والذهول وبين اليقظة والغفلة ثم يقول :

ليتنا ذكرنا لوحاتك يوم الرحيل .

الزوجة : ليتنا ذكرناها ... ليتها كانت معنا الآن .

الزوج : كيف نسيناها؟

الزوجة : لقد مر ببالي الذي مر ببالك ، فاهتززت وارتعدت ، ثم قلت في حيرة : كيف نسيناها ؟ .

الزوج : ظننا رحلتنا غيبة لا تطول .

الزوجة : كانت ساعة الفراق هولاً وكربا .

الزوج : ولم نحسب للصور ثمناً أو ريعا .

الزوجة : ولم نحسب انها قادرة على أن تخلصنا من الحرمان وتدفع عنا اللجوء الى مخيم اللاجئين .

الزوج : ولم يخطر لنا ببال أن الفن يذهب ويجيء، يتحرك ويهمد، ينبع ويغيض ثم يجف .

الزوجة : قلت لك : انني كنت أصنع الفن للفن، ولم أكن اصنع الفن للمال .

الزوج : تفرجي ... تناسي ... تذكري ... اسهري لعلك تسترجعين ريشتك .

الزوجة : تفرجت ، تناسيت تذكرت، سهرت ، ولكنني لم استطع أن ارسم ... فخطوطي ندوب الجراح، وظلالي يحوطها بياض الاكفان.

وانهما لكذلك ، تدخل عليهما لاجئة ، تستعير صحنا من الطحين، فتأخذه ثم تذهب !. فتبدو الزوج هامدة ، تنظر ولا ترى ، ويحدثها زوجها فلا تجيب .. فيصرخ الزوج فيقول :

ماذا دهاك ؟

الزوجة : ألا ترى كيف يعيش جيراننا اليوم ، وأنت تعرف كيف كانوا يعيشون بالامس؟

الزوج : ألا ترين كيف نعيش اليوم ، وأنت تعرفين كيف كنا نعيش بالامس ؟

الزوجة : « بصوت خافت » هذا الذي غير علي نفسي ، حتى كأن معيني قد نضب ، وحتى كأن أزهار حياتي قد ذبلت .

الزوج : « في ابتسامة حنون » لا تتغير النفس،ولا تذبل أزهار الحياة ، ما دام الينبوع حيا .

الزوجة : وأين هذا الينبوع ؟

الزوج : أنت ... أنت ينبوع الحياة في الفن .

الزوجة : هل هذا هو الصحيح ؟.. نعم ! .. كان الفن هادئاً مطمئناً يوم كانت حياتنا هادئة مطمئنة ... كان يعرض صوره على قلبي صورة بعد صورة ، يوما بعد يوم ... وكانت كل صورة تسكن في خيالي وحدها بطولها وعرضها ، فلا تنازعها مسكنها صورة أخرى ، حتى تستوفي عمرها وحياتها ، وحتى تكون قد تمكنت مني، وحتى أكون قد أدركتها تمام الادراك ... أما اليوم فقد أضحى الفن صاخباً عاصفاً مصطفقاً .. لقد صار اليوم سيلاً يتلاطم بين الجوانح والضلوع .. صار عدداً لا يحصى من صور مزدحمة متصارعة ! .. فالدار التي

تركناها ، والطريق التي سلكناها ، والناس الذين رأيناهم ، والهول الذي انطوت جوانحنا على كربه وعذابه ، والجحيم الذي صرنا اليه .. هذه وحدها سيل ، بل غمر من الصور يموج ، يضطرب ، يستبق، يريد أن يرى الشمس والقمر يريد أن ينقض على الريشة ، في ازدحام، في تشابك ، في تداخل ... فتجيء الصورة خطوطاً غافلة ، يراها الناس غفلة أطفال ، وأرى في كل نقطة منها النور والنار!... وما غناء الصورة اذا كان الناس لا يرون فيها الا السواد أو البياض ...

ويبدو على الزوجة التعب والملال واليأس ، فتقول: أكتب علينا أن نقطع صمتنا أكثر الليالي بهذا الحديث... وما فائدة هذا الحديث ؟

وتمضي الايام فتظهر على الزوجة مظاهر الحمل ، ويقسو عليها الوحم ، حتى يلقيها في الفراش .. وبعد أشهر تلد طفلا !.. فيفرحان به ويستأنسان .. ثم يعدان السنين فاذا هما متزوجان منذ ست سنين ، ولاجئان منذ ثلاث سنين .

وترعرع الولد ، وأخذ ينمو شهراً بعد شهر ، وأخذت أمه تلهو به وتتسلى بالعمل له ، وأخذه أبوه يلهو به ويتسلى بالعمل له ولامه.. فكان هذا الولد متعة وهناءة وسلوى .

صارت حياتهما راضية مطمئنة ، فتحولت الغربة الى انس، والخيمة الى الف ، والتقشف الى عادة محتملة .. وأصبحا لا يحسان بملل أو

سأم أو فتور ، بل صارا يرجوان ويأملان ويحلمان ، لقد صارا يحسان بحلاوة الحياة كما كانا يحسان بحلاوتها عند ما كانا في دارهما في وطنهما قبل ثلاث سنين ..

وتفيق الزوج ذات صباح ، على انشراح يحلو معه في عينيها النهار ، فتقوم الى تنظيف الخيمة كما كانت تقوم كل يوم ، ويحمل زوجها الطفل فيذهب به نحو الجيران كما كان يفعل كل يوم .

حتى اذا خلت الام في الخيمة ، شعرت باسترخاء ، فاضطجعت على الحصير .. ولم يمض الا القليل حتى قامت الى الريشة ، وأخذت تنثر منها الظلال والخطوط والالوان ، فتخرج صورة مكونة تكويناً كاملاً ليس فيها ما يحتاج الى التغيير .

ويجيء الزوج، فلا تحس بمجيئه ، ويتحدث الطفل فلا تسمع حديثه فاذا أطل الزوج ، ورأى الصورة ، طار فرحا ، وهتف يقول:الفن عاد.

فتلتفت اليه زوجه ، فترى على جبينه اشراقة ما عرفتها منذ النكبة، وترى طفلها على يده يكاد يقع على الارض في غفلة منه ، فتقول له :

واخيراً رسمت ، صورت ، عاد الي فني .. ثم تقول : دعني ان هذا اليوم لي .. اذا شئت خذ الطفل الى خيمة الجيران ، فالصور معروضة على بصري بوضوح ، وأخشى اذا ذهب هذا اليوم ان اضيع الذي لقيت. فيخرج الزوج من الخيمة ، والطفل على يديه ، فلا يمضي النهار حتى تكون قد انتهت من صور أربع .

وفي الاصيل يجتمع اللاجئون على الصور ينظرون اليها بحـــيرة واعجـاب .

فيقول لاجيء : أنظروا هذه دارها يوم تركتها ، انها لاهية عن الدار والدار غير لاهية .. فيها همدة المفارق ووثبة المشيع ، وحـــيرة الخائف المذعور .

وتصيح لاجئة : تعالوا انظروا تروا اليهود في الشارع يكسرون باب الدار ويدخلون .

فيجيب لاجيء : انظروا اللؤم والظـــلم يطرد النبل والعدل.. وترتفع صورة أخرى ، فيجتمع عليها اللاجئون يقولون : هذه طريق الهجرة من ضاحية يافا الى دمشق !.. هنا وادى الصرار ، جموع من نساء وأطفـال تمشي مسرعة ، وجموع تستريح .. ووراء الجميع عجوز تخلفت عن الركب ، تحمل بيدها حفيداً حدثاً ابن ثمان ، قد لبسه الكلال .. وهذا طفل للصبية شهيد ، جثة هامدة ، قد نزف ، فرمته جراحه في الطريق ، فوقف بصر أمه عليه ، فما تستطيع ان تدير وجهها عنه دورة الابد .

ويقبل لاجئون ، فيخطفون صورة ، ويمعنون فيها ، فيهمدون.. هذا واجم ، وذلك دامع العين ، وآخر وضع يـده على فمه كأنه يفضي بأنفاسه .. فقد بدت في الصورة بيارة ، الى جانب مزرعة ، قد أخـذ

اليهود يجنون ثمـــار البيارة ، ويحصدون زرع المزرعة ، ووقف على الحدود وراء الاسلاك اصحاب البيارة والمزرعة ينظرون الى ثمارهم وقمحهم ينعم بها اعداؤهم ، وهم بائسون جائعون ، لا يستطيعون أن يتخطوا الحدود الى ديارهم .. ويقبل لاجىء ، ويلقي على الصورة كلها نظرة سريعة ، ثم يقول :

هذه الصور قد أنقذت أسرة من البؤس .

ويسمع الزوج حديثه فيقول :

غداً نعرضها للبيع ، ثم نرحل عن مخيم اللاجئين ..

فتصيح الزوجة :

أنا !.. أنا لا أبيع فني !.. أنا لا أتاجر بآلامي !..

* * *

كنت مريضاً

قال لي الطبيب : أصبحت تستطيع أن تأكل ما تريد ، وتخرج من البيت ساعة تريد !.. فالنبض عادي والحرارة مثله ، وجراحك التأمت، وأنت في مأمن من النكسة والاختلاط ، ما تجنبت التخمة والارهاق !.

وكنت لا أزال مضطجعاً ، في بيت عمي في الناصرة ، منذ ستة أشهر ، لجرح قاتل أصبت به في الصدر ، في إحدى المعارك ، وكانت الاسرة قد رحلت ، ولم يبق في الناصرة غير عمي وأهله !..

فكانت بشارة الطبيب فرحة ، انتزعت من نفسي حزناً ، كان يقلقني في النكسات ، وفي أوائل المرض !..

فعملت برأي الطبيب !.. أكلت على الجوع ولم أكثر ، وشربت على العطش ، ووجدت في كل طعام لذة ، وفي كل شراب متعة ... وخرجت للنزهة أتسلى بالطواف على الاصدقاء ، وأفرح بالمشي في

الطرق ؛ أحس أن كل طريق أمر به جزء مني ، سلبني إياه المرض ، وأعادته لي الصحة .. وكثيراً ما وضعت يدي على الجدران في الحارة، ألمسها فأستمتع بلمسها ، وأحس أنني موجود وكنت كالمفقود ..

صرت كل يوم أزداد قوة عن أمس !.. وكنت كلما ازددت قوة ، ازددت اهتماما بعمل يعود عليّ بنفقتي ونفقة أهلي من ورائي .. فقد احتملني عمي وهو في ضيق ، واحتملت أن أكون عالة عليه ، يوم كان جرحي خطيراً ، ولم يكن بيني وبين الموت سوى خطوات !.. فهل أستطيع اليوم أن احتمل ما احتملت والجسم صحيح ، وانا ما ازال في ريعان العمر ..

كان من المحال ان اعود الى عملي في شركة بترول حيفا ، واليهود يهيمنون عليها وعلى البلاد .. وكان من المحال ايضاً ان اجد عملاً عند عمي ، او عند غيره من ابناء العرب ... فقد سمعت ان شبابهم عاطلون، واعمالهم لا تعطي الا بعض نفقاتهم !.. فلم يبق لي غير السفر الى البلاد العربية المجاورة ..

والسفر انقطاع عن ابنة عمي « سلوى » التي سهرت علي في مرضي من أوله الى آخره !.. سقتني الماء والدواء ، وعنيت بفراشي ولحافي وثيابي ، واهتمت بطعامي وشرابي ... وأكثر من ذلك ، رأيت في عينيها ، وعلى أساريرها آلامي وعذابي وفرحة شفائي !.. حتى

أصبحت لا أطيق الحياة إلا معها ، ولا أحب الذي لا تحب !.. فاذا غابت غاب نهاري ، واذا حضرت أضوأ ليلي .. ولقد استقر في روعي أنها كانت هي الدواء ، وأن حنانها هو الشفاء .

وسلوى أضحى الذين يطلبون يدها كثيرين .. فكل أسبوع يرمينا بطالب ليدها غير عاطل مثلي .. فاذا بلغني الخبر اضطربت ، وتلجلج لساني ، وخفت صوتي ، وغمرتني غماء تدوم يوماً أو ثلاثة ، حتى أعلم أن عمي قد رفض الطلب ، بعدما كادت تستجيب له زوجه !..

وهكذا مرت عليَّ أيام قلقة ، طالت معها تقاهتي ،وكادت تعيدني الى الوجع الذي كنت فيه ..

لم يكن أحد بصيراً باضطرابي غير عمي .. فقد كان يؤنسني ويكرمني ، ويدأب يقول على مسمع مني ومن الاسرة : إن ابن اخي واحد منا ، ألفنا وألفناه ، فأصبحت لا أريد أن أعيش إلا معه ، وأصبح رجائي به ، كرجائي بأولادي ... ثم يراوح بنظره بيني وبين سلوى ، كأنما يريد أن يطمئن الى اننا فهمنا ما لم يرد أن يصارحنا به!..

وفي إحدى الليالي ، دار حديث الاسرة حول هذه الخطبة ، وكنا مجتمعين آخر السهرة ، فذكَرَتْ زوج عمي أن فتى طلب يد سلوى ، له في بيروت محل تجاري ناجح ، ويدفع مهراً لا عهد للاسرة بمثله ، وسيرحل الى بيروت قريباً فهو مستعجل ... فاضطربت

وحاولت على غير جدوى أن أقطع الصلة بين نفسي وبين وجهي ، أريد ألا يظهر اضطرابي ، فأخفقت ؛ بل هاجمني الدمـــع ، وتغرغرت عيناي به ، وكدت أذعن للتضعضع والانكسار ؛ فتركت الجلسة على غير اعتذار ، وذهبت الى غرفة النوم !..

صرت أجلس على الفراش ، ثم أعود فأضطجع ، ثم أنهض وأمشي في الغرفة .. كنت كلما أخذتني سنة ، دار في خلدي أن زوج عمي لا بد ان تقول : كيف أزوج ابنتي من عاطل لا عمل له!.. فيطير النوم من رأسي ، وأصحو على الازدراء والبطـــالة وفراق سلوى الى الابد !.. ثم أفكر في النجاة ، فلا أجد النجاة ، إلا في السفر بطلب الرزق ، في غير هذا البلد قبل ان ينفد ما احتفظ به من نفقـــات الرحيل ..

وفي الصباح لبست ثيابي ، ورتبت حقيبتي ، ثم فتحت باب الدار ابحث عن طريق توصلني ، الى شرقي الاردن !!..

فلحق بي عمي يناديني !.. فقلت بصوت مجهود : يا عم ! إنـــني عزمت على السفر فسامحوني !.. قال : أتذهب بلا زاد ولا مال ، ومـــا يزال جسمك ناحلاً وانت في النقاهة ؟ قلت : معي من المال مايكفيني !.. فأقسم عليّ ان ارجع !..

رجعت .. حقيبتي تحت إبطي ، وعيناي على باب الدار ، أهم ان

اقطع الحديث واخرج .. فاجتمع حولي اولاد عمي ؛ بنون وبنات ، يستنكرون هذه الرحلة المفاجئة ، إلا الأم !.. فالتفت عمي اليها ، يقول : هذا ابن اخي ، واحد من اولادي ، فاذا ذهب ، ذهبنامعه! قالت : انت عازم على ان تزوج ابنتك منه !.. قال : نعم !.. قالت : تَعْضِلُها عن الزواج حتى تَعْنَسَ قبل ان يجد العاطل عملاً !.. والعمل بعد هذه النكبة أضحى كالعنقاء !.. قال : ألا تعلمين أن رزق الشباب وراء الباب .. فقلت على غير وعي : انا ياعم اريد الذي تريد !..

فابتسمت سلوى ابتسامة الاطمئنان والرضى ، ثم اطرقت تواري الابتسامة بالخفر !.. وزغردت الصغرى من بنات عمي بصوت خفيض، وضحك الجميع لها ، وربتوا على ظهرها إيذاناً بالموافقة !..

فلما رأت الأم ، انها تطلب غير الذي يطلب اولادها جميعاً وابوهم معهم !.. اذعنت !.. وقالت : أمري لله .. فلكم ما تريدون .. ولم يمض اكثر من ثلاثة ايام ، حتي كتب الكتاب ، واقيم العرس المتواضع... ثم مضى الشهر الاول ، فرجعت صحتي الى قوتها الاولى ...

وخَطَفَ الدهرُ الليلَ والنهارَ ، فمضت سنة ، ونفد كل مامعي من مال ، ورزقنا بولد ، وما زلت عاطلاً بلا عمل !..

كنت وحدي عند عمي ، فصرنا ثلاثة .. انه مايزال مشرق الوجه باسماً ، وما يزال يُطرفنا بالحديث العذب ، والنوادر ، ويخوض في الرجاء والتفاؤل !..

لكن كل ذلك لم يكن ليهدىء بالي !.. فقد اصبحت اتوهم أنني غليظ على نفسي ، غليظ على من حولي ، اعيش من هذا الوهم ، على صغار وقلق واضطراب !.. ولكم حاولت ان انتزع هذا الوهم ، فخانني حولي، ولكم تكلفت ان أواريه فزادني التكلف زراية بنفسي ... بل جعلني اضحك لكل حديث عابر ، ولو كان عن الثكل والمأتم !.. فاذا جاءت الفكاهة ، وضحك لها جميع من حولي ، وجمتُ ولم افطن منها لما يضحك !..

وجاء العيد ، فأهمل عمي نفسه واولاده ، واشترى لي ولزوجي وولدي الجديد من الثياب ... وجاءتني سلوى تحملها ؟.. فلما رأت البهتة في وجهي ، بهتت هي ايضاً ثم لم تلبث ان وضعت الثياب جانباً وقالت في بشر وحنان :

ــ ما كان ابي إلا أبا لك ، وما كان ماله إلا مالك ... هؤلاء جيراننا يعول بعضهم بعضاً ، وأكثرهم عاطل يتلوى بين البؤس والضر !.. كن مثلي !.. كن في هنائي !.. كن في اطمئناني !.. أنت كسائي !.. انت طعامي !.. انت شرابي ... أنت في يومك العابس مقبل على يومك الباسم !..

قلت « وأنا أعانقها والدمع حارٌ » : لم يبق لي فرج إلا في الرحيل، على ألا أفارقك وتفارقيني .. ولم يقعدني عنه حتى اليوم ، إلا أنني لا أملك نفقاته !..

قالت : أتحدث بذلك الى أبي ، عسى أن يجد لذلك مخرجا !..

قلت : وأنا ايضاً استأنف البحث عن عمل هنا ، وإن كان الظفر بالعمل من المعجزات !..

وفي صباح الغد ، قصدت الى السوق أزور عمي في محله التجاري، وأختلط بالتجار ، أرجـو أن أهتدي بهم الى عمل ، لا أبالي أ كان العمل قاسياً أم رحيما ما خلصني من البطالة !..

ومررت بالسوق ، فاذا هي هامدة ، لا ازدحام ولا ضوضاء ، فالدكاكين بعضها مغلق وأكثرها مفتح الأبواب ... وأصحابها بين جالس في صمت ، وبين متحدث الى جاره في سأم وملال !..

فلما وصلت الى دكان عمي ، لم أجده فيها ، ووجدت ابنه ، وهو في الرابعة عشرة من العمر !.. ففرح بي ، وآنسني .. ودار بيننا حديث طويل .. فلما أنكرت عليه تخلفه عن المدرسة ،قال : إن مدرستي مغلقة منذ زمن ، وليس في البلد إلا مدارس اليهود !.. وقد عزم العرب على افتتاح مدرسة ، وهم دائبون للعمل لها..وما أخرهم إلا التعسير الذى يلقون من الحكومة !..

فسألته عن أبيه ، فقال : إن أبي قلما يأتي الى محـله ، فهو يلوب نهاره في البلد ، يطلب الظفر ببضاعة مُزْجاة ، يحـــاول أن يعوض بعض الكساد !..

ثم سكتنا لا أسأله عن شيء ، ولا يجد ما يحدثني به عن شيء ... ووقف بالي على فراغ يحوط بي من جميع الجوانب ، لا ألمح فيه حاضراً ولا مستقبلاً ، فهو عابس مظلم ، أشبه بالفراغ المحيط بالمقدمين على الانتحار!..

وإني لكذلك إذ جاء اثنان من الجيران ، يسلمان عليّ، ثم أخذوا في الحديث !.. قالوا : إن أصحاب هذه الدكاكين المغلقة أرغموا على النزوح ، لاشتراك أبنائهم الشهداء بالمعارك ... وعما قليل يفتحها اليهود، كما فعلوا بغيرها من قبل !..

ثم تحدثوا عن الكساد ، فقالوا : إن القرى العربيـــة التي كانت تشتري من عندنا ، بعضها أبيد في معارك غير متكافئة ، وبعضها نزح قبل أن يباد ... ولقد فقدنا بفقدهم تجارة البرية كلها !.. أما البقية الباقية من أهل الناصرة ، فقد نفد ما عندهم من ثروة ... وأخذوا يُقَتِّرون على أنفسهم متأثرين بما مارسوا من غدرات الزمان .. فقد تمر الساعات ولا ترى إلا ولداً يطلب علبة كبريت ، أو نكاشة لموقد الغاز !..

ثم استرسلوا في حديث قاتم ، شعرت معه أنني أتدحرج في هوة تحيط بها فياف لا تعرف من الحياة إلا ما تسفيه عليها الرياح السافية ... فقمت ، فجأة ، أودع المتحدثين ، وأمشي أخشى أن تخونني رجلاي عن المشي ...

وما وصلت الى باب الدكان ، حتى أقبل عمي !.. فلما رآني تهلل وجهه ، وأشرق ، وقال : الحمد لله على الصحة ، فما أحلى أن أراك هنا ، وقد رجعت اليك قوتك ونضارتك .. ثم قال : لقد حان وقت الغداء فهيا بنا الى البيت !.. ثم التفت الى ابنه ، وقال له : نرسل لك الغداء مع أخيك الصغير ...

إن التفاؤل الذي يلازم عمي في السراء والضراء ، والرضا الهانىء الذي يطرد عن قلبه الغم ، قبل أن يصل اليه الغم ، كلاهما فائض عنه ، موح للآخرين بالتفاؤل والرضا ، ومزحزح عن قلوبهم غماء التشاؤم واليأس ..

لذلك شعرت بالروح ، يهب بين ارجاء نفسي منذ لقيته ، ولذلك عدت ، بلقائي به ، كما كنت قبل أن أسمع أحاديث التجار .. ورافقته الى البيت ، مستريحاً مستأنساً ، يلوح لي رجاء رحيم ..

فلما وصلنا الى البيت ، وصرت وإياه في غرفة وحدنا ، ابتسم وقال : أنت وسلوى تستعجلان السفر ، وقد أذعنت لرغبتكما ، فدبرت نفقة لكما مع ولدكما ، تكفيكم ثلاثة أشهر ! .. ثم أخرج من جيبه نقوداً ، وألح عليّ بأسلوب الوالد الحنون ، أن آخذها ...

فمددت يدي ، وألقيت بها في جيبي .. والشكر باد بدمعة

الفرح التي اغرورقت بهما عيناي الاثنتان ... وفي اليوم الثاني سافرت الى الاردن ، معي زوجي وولدي ! ..

وفي عمان ، رحب بي الاصدقاء ، وآنسوني ، ومشوا في طريقي يبحثون لي عن عمل !.. في الشـــركات ، في الوكالات ، في الحكومة .

ومضت أسابيـع ، وأنا مطمئن الى الظفر بما أتمنى ، فرح بمعونة الاصدقاء !.. كانوا كلما سمعوا بعمل شاغر ، تهلل وجههم وبشروني ، وذهبوا ثم عادوا يقولون : ان العمل مشغول ، ولكن غيره من العمل كثير ومأمول .

مضى شهر ، وأنا بين الرجاء واليأس ، بين التفاؤل والتشاؤم يلوح لي الامل ، فلا يلبث أنْ يختفي فأعيش بلا أمل ..

ثم توالى الاخفاق !.. فرجح التشاؤم ، وتمثل لي مصيري بمن عرفته قبل النكبة من الموسرين ، وأراه اليوم في عمان ، يعمل في مقهى ، فاذا رآني توارى عني ، فأترك المقهى، لاطلقه من الغضاضة، وهو لا يدري أنني عندما رأيته رأيت مصيري... وآخر يعمل عتالاً يتغاضى عني اذا التقيت به ، وأتغاضى عنه ... كلانا محروق من هذا اللقاء المحرق ! .. وآخرون نَحِلَتْ أجســامهم ، وظهروا بمظهر الموسرين ، والعيش المرُّ غَضَّنَ الوجوهَ ، وامتص نضارتها ،

وسرق العمر فجعلهم كهولاً وهم لايزالون في ريعان العمر .

وفي أواخر الشهر الثاني ، ذُكِرَ لنا عمل في رام الله ، فذهبت اليها أبحث عن هذا العمل . . وإني لفي السيارة (باص) ، جلس رجل الى جانب امرأة نَصَفٍ في مقعد واحد ، فلامه مَنْ كان حوله ، وطلبوا اليه أن ينتقل الى جانب رجل ، ثم كاد اللوم أن يتحول الى عراك ... فقالت المرأة بصوت يعلو على صوت المتعاركين : ويحكم !... تمنعون عربياً أن يجلس الى جانبي ، وأنا التي ظلت ستة أشهر أسيرةً ، تقذفني حراب اليهود ، وأيديهم كما تقذف الكرة .. فلو رأيتموني بين ذلك البلاء وكانت هذه الغيرة مستيقظة فيكم ، لما عاش منكم رجل واحد !.. ثم صرخت تقول : أنا بقية السيوف من أسرة كانت تعد خمسة وأربعين شخصاً ..

فطار صواب جميع من في (الباص) وطار صوابي معهم ، وهمدت الاصوات ، غير محرك السيـــارة يخفق وحده خفقة القلوب التي فيها . .

نعم ! . . ورجعت من رام الله بخفي حنين كما رجعت من غيرها . . .

وأخيراً عَرَضْتُ أوراقي على رئيس شركة البترول في عمان ، وكان ذلك للمرة الســـادسة ، فلما رآني ، رازني وصوب النظر

فيّ وصعـــده في زهو ، ثم وعدني أن يسلمني عمـلاً خلال سنة ..

كان ذلك أملاً ... ولكن السنة متى تنتهي ، وكـيف تنتهي ، ونقودي تنفد بعد شهر ... أما مصيري بعد نفادها فقد رأيته ...

فالصواب اذن هو أن أسرع ، فأذهب الى سورية ، عسى أن أجد فيها عملاً ! .. فإذا لم أجده ، عدت مسرعاً أحوم حول ذلك الامل !..

وفي صباح يوم باكر ، ودعتُ عمان لا يَشْغَلُني عن جو السفر المتغير المتجدد ، غير غول البطالة التي تمثل لي في كل مكان أذهب اليه !.. فلبثت في السيارة صامتاً لا أتحدث ولا أتحرك !.. وساوى الى جانبي تريد أن يتزحزح بالي عن الهم الذي يشغله ، فتبسم لي.. ثم تراني صامتاً فتصمت ... حتى اذا اجتزنا من الطريق أكثر من نصفه ، ذهب ذهني الى عمان فذكرت أحد الغلظـــاء كان يجالسني ، فابتسمت !.. وكانت عينا ساوى على وجهي ترى ابتسامتي ، فابتسمت ، وقالت: متعني بلهوك الذي تتخيل !..

قلت : ذكرت فتى كان يجالسني في القهوة في عمان ، وقد وصف نفسه انه درس كتاب الاقتصاد السياسي (لبول لهروا بوليو) !. كان كلما عدنا بالإخفاق ، وتحدثنا عن الازمة ، عارضنا وقال :

لا أزمة ولا ضيق . . نحن نخلق الازمة ونحن نخلق الضيقـــة ! ..
ألا ترون العـاطلين منا لا يطلبون عملاً يتقنونه ويرضون بـكل عمل يجدونه ! . .

فلما قيل له : حكمتك هذه تبلغ غاية السداد ، في بلد بذلت فيه الاعمال بجميع أنواعها ، وتسخف في بلد شحت فيه الاعمال بجميـع أنواعها ، انطلق يُغَلِّفُ تلك الحكم بحديث في الاقتصـــاد طويل ينسيك آخره أوله .. وفي احدى الجلســـات انصرف عنه الحاضرون واحداً وراء واحد ، ولم يبق منهم الا اثنان ، وصاحبنا مازال يسرد اصطلاحات محفوظة عن ظهر غيب ، بعضها بالعربية وبعضهـــا من الرَّطينَى ..

فقالت سلوى ، بعدما سمعت حديثي : كذلك شأن الاحمق يلقي بغلاظته عليك ، ويثرثر بالترهات ، ويرميك في غماء لا ضوء فيها ولا هواء ، حتى اذا ذكرته بعدما فارقته وصرت في مأمن من ترهاته ، وصلتكَ ذكرياتُك معه بينابيع الضحك من النفس... وكيف لا يضحك المرء من ابنة الملك التي قالت للشعب الهائج من الجوع : عليكم أن تأكلوا (البقلاوة) ..

وبعد ، فهو حمار في مسلاخ انســـان ، كما قال في مثله خالد ابن صفوان !..

فضحكنا ضحكاً عالياً لهذه القافية ... وما زلنا بين الابتسام والضحك ، حتى صرنا الى الحدود ! .. وظهر المخفران الاردني والسوري ، وجندهما وحرسهما ، وظهرت جموع المسافرين ينتظرون رأي المخفرين !..

فراعني الموقف ، ونحن بلا جواز ، وبدا لي أن الرجعة أيسر من الاستخذاء للحرس بلا طائل !..

ومر الركب واحداً بعد الآخر ، فاشتبهوا بناس فوقفوا ، وتركوا ناساً فمروا ، وسئم آخرون من الانتظار ...

وجاء دورنا .. فأقبلنا قانطين !.. زوجي الى جانبي ، وابنها على صدرها ، وحقيبة الثياب بيدي .. وقد أيقنت أنني راجع لا محالة .. بل دار في وهمي أنني أسمع المخفر يقول لي : إرجع من حيث أتيت !..

وما هي الا لحظة حتى سمح لنا بالمرور ! ..

مررنا بكلمة قلتها للضابط الذي سألني عن جواز سفري ، قلت له همساً : نحن لا نحمل جوازاً ... وهذه زوجي والطفل ولدي ... نقصد الى سورية بلدكم ، نطلب فيها فرجاً بعد ضيق شحيح !... فابتسم الضابط ابتسامة حزينة ، وقال : أنت صادق !.. تفضلوا ...

فما تكلم حتى رن صوته ، في أذني رنيناً تألفه أذني ، فذكرت بعدما مشيت خطوات ، أنه الدمشقي الذي التقيت به في معركة حول

طول كرم منذ حين طويل.. وكان لي عضداً وظهيراً ، وما أنسانيه الا الهم والغم !.. فالتفت اليه في شوق فوجدته بين ضوضاء تَشْغَلُه عن بَسَمَات الشكر !..

وصلنا الى دمشق عند الظهر ، فلم نمكث فيها، الا بمقدار ما اكلنا.. واستأجرنا سيارة الى حمص ..

وهنالك رجعت الى شركة البترول وقدمت لها اوراقي ... فذهبت الاوراقُ ، ثم رجعت ، ثم ذهبت ثم رجعت .. وبعد عشرين يوماً أعطيتُ احسن عمل بأحسن راتب في بانياس !..

الآن ضحكت لنا الدنيا بعد طول عبوس!.. الآن فطنت لنفسي !.. فطنت لرغبات زوجي !.. بل فطنت للصباح .. فطنت للمساء .. للنجوم .. للشمس .. للقمر ..

الآن شعرت انني من اهل هذه الدنيا ، لي نصيب فيها مثل نصيب جميع اهل هذه الدنيا ..

استأجرت بيتاً مطلاً على البحر ، واخذت في تأثيثه .. بدأت من الحصير واللحاف حتى وصلت الى السجادة... وصرت افرح اذ يزورني الاصدقاء في بيتي ، وصار بوسعي ان ادعو ضيوفي الى مثل ما يدعى اليه الضيوف ..

ولما صار في جيبي فضلة من مال ، بحثت عن اهلي ، فوجدتهم في الكرك .. فأرسلت اليهم ان يأتوا اليّ فنعيش معاً في بلد واحد ..

جاءت أمي ومعها اخواي... فالتقينا اهنأ لقاء ... وجددت لهم الكساء ، وبعض الأثاث !..

كانت أمي تستيقظ عند الفجر ، فتمر علينا واحداً واحداً ، تغطينا وتملى وجوهنا ملاوة ، ونحن نائمون ، ثم تقبلنا وتذهب للصلاة ... ولكم سمعتها ، تدعو الله قبل طلوع الشمس ألاّ يفرق بيننا ، وان يديم علينا هذا الهناء .

ثم اكتمل الهناء ، باشتغال أخوي في معمل السكر في حمص بأجور محترمة ، فذهبا اليها وأمهما معهما ..

واخذت أفكر في عمي ، وعزمت ان اقتصد في النفقات عسى أن أرسل اليه مبلغاً يخلصه من الضيقة ، وينتزع من صدر حماتي ذعرها من أن أعيش الحياة عاطلاً ... فلما اجتمع لي بعض المال ، ضممت اليه ما اجتمع لدى أخوي ! وجعلت أبحث عن الوسيلة التي أستطيع معها أن أرسل المبلغ الى الناصرة ...

وإني لفي ذلك ، أضرب عمال وموظفو شركة البترول ،

ففصلت الشركة كثيرين عن العمل ، وكنت بين هؤلاء المفصولين..
وقد وعدونا بالعودة للعمل ، وكان ذلك منذ ثلاثة أشهر !..

وهأنذا حائر بين انتظار ما تقره شركة بانياس ، وبين أن أذهب الى شرقي الاردن ، استنجز ما وعدت به !. والذي أجزع له هو أن أصير من الوعدين الى مواعيد عرقوب ... ويزيدني جزعاً أنني قد اضطر مرة بعد أخرى ، ان اجتاز الحدود المصطنعة ، فأجدها غاصة بالمخافر العربيــة تقول للعربي الناطق بالضاد : ارجع من حيث أتيت ! . فقد جعلنــا بينك وبين كل قطر من اقطـارك سـداً من سدود الصين !..

* * *

كنت طالباً في جامعة لندن

« أملاها عليّ فتى فلسطيني
من الرملة ، هو الآن في
دمشق واسمه (ع ـ ل) »

كنت واحداً من عشرين فلسطينياً ، سافروا الى بريطانيا للدراسة في معاهدها عام ٩٤٥ ... ووقعت الكارثة وأنا هناك ..

كانت سني لا تزيد على ست عشرة سنة ... كنت حدثاً ، لا أفطن للنكبات الواقعة أو المتوقعة ... بل كنت لا أشعر بالتحول الدائب ، والتبديل المستمر ... ولا يخطر لي ببال ، أن نهر حياتي الجاري بين الالحان ، ستلاحقه السافيات ، فتنهار عليه الجرف ، ويتحطم مجراه ، ثم تتحول ألحانه ، الى حنين وأنين ... كان ثابتاً في خلدي أنني سأعود من هذا السفر الطويل ، فأجد عمي وأمي وإخوتي ، ودارنا التي درجتُ فيها ، وساقيات البساتين التي تركتها ، باقية على ما عهدت من زهو وأنس ...

كذلك كنت ساعة صعدنا الى الباخرة الفخمة (فرانكونيا) في أصيل يوم من خريف تلك السنة ... وكانت راسية في مرفأ حيفا ، وكان المستقبل يتراءى لي عظيما كعظمة البحر ، رائعاً كروعة الباخرة، رافهاً رفاه المترفين فيها ..

وكان الذين يودعونني من الاهل واللدات ، يغبطونني ، وينظرون الي نظرة جازت الزمان ، ووصلت الى المستقبل ... فمن رأى عطفهم علي ، واحترامهم لي ، حسب أنهم لا يودعون طالباً يسافر ، أو فتى يفارق ، وإنما يستقبلون رجلاً عاد بعد سفر طويل ، على علم غزير ، وعلى مكانة لا يظفر بها ، إلا نفر من العلماء يعيشون في قطر ما يزال شحيحاً بأمثاله ...

ولما أخذت الباخرة تتهادى عند الغروب في جبروت ، وقفت على السطح أشرف على الأفق ،استمتع برقصات الالوان المتخلفة عن الغروب.. فلم ألبث أن امتد بصري الى ما وراء الليل وطاف بفلسطين من أولها الى آخرها ، يودعها ... فيقف عند كل مشهد وقفة طويلة ، حتى ما أطيق أن أحوله عنه إلا بعد عناء ... وكأن الغيب كان يدفعني أن أطيل هذا الوقوف ، وكأنني كنت أحس أن في بطون الغيب ما يشعرني أن هذا الفراق لا يشبهه فراق ...

ولما وصل بي المطاف الى « الرملة » بلدي ، بدت لي دارنا أكثر

حزناً مما كانت عليه قبل يومين ساعة الوداع ... ورأيت مرة أخرى عمي الشفيق يعطيني الذي أعطي من حجب وتمائم وآيات ... وسمعت أمي الحزينة تهتف بي كما هتفت أول أمس ، بعد ما ودعتني وبعد ما صرت وراء باب الدار ، سمعتها تقول كما قالت يومئذ : إرجع دقيقة واحدة ، ودق هذا المسمار على الجدار ، عسى أن ترفعه بيدك عندما تعود الى الدار. لقد رأيت مرة أخرى ، وأنا في عرض البحر ، كيف اشتاقت الي أمي قبل أن ابتعد عنها خطوات معدودة ، وكيف عملت بما يملي عليها لذع الفراق من أوهام ... فغرقت في حزن أتى على بقايا الفرح الذي كنت فيه منذ قليل ، وتمنيت لو أن لي سلطاناً على الربان فيعيدني الى بلدي ..

ولم يخلصني من هـــذا الوجوم الحي الحزين ، إلا صوت رفاقي ، يهتفون بي ، يقولون : مالك تستريح في ساعات العمل !.. عجل ، ندبر ، موضع النوم قبل أن يسبقنا الركب الى أحسن المواضع في الباخرة ..

فانتبهت ، فاذا أهل الباخرة من رجال ونساء وجنود ، يرتبون مواضعهم ، بعد ما انتخبوا أحسنها ، وهم يتغنون ، ويتحاورون في ضوضاء ،وصخب ... فانضممت الى رفاقي أبحث معهم عن مكان للنوم ..

كان الحر شديداً في تلك الليلة ، وكانت فرشنا معلقة على سطح الباخرة ، وكان معنا ضباط من الانكليز ، يسافرون في اجازة ؛ وكان هؤلاء يدفعون هذا ويزحمون ذاك ، يريدون أن يستأثروا باحسن موضع

على ظهر الباخرة ... بل كانوا يريدون بالترفع والجبروت،وبالنظر الشزر الى الصغير والكبير ، يريدون تعريف البشر بأنهم من طينة مزجت بالماس والابريز ، وبأن النـاس جميعـاً نبتوا بين الوحل والطين ... ولن ترى أكره للنفس ولا أغلظ عليهـا ولا أثقـل ،ولا أدعى الى اثارة البغض والحقد من اولئك الذين لم يقنعوا بعد أننا كلنا لآدم وآدم من تراب ..

وفي منتصف الليل ، أخـذوا يوقظون النيـام بالصراخ والركل ... وجاء دوري ، ففوجئت بضربة قوية على يدي،فاستيقظت،فاذا هم حولي، يطلبون الي بعنف أن أخلي لهم مكاني ...

فغاظني منهم الجبروت ، فدفعتهم بعنف ، فدفعوني بأعنف ، فقـلت بصوت مغيظ : ألا تعلمون أننا هنا في مكان ليس لـكم عليه انتـداب أو سلطان !.. فهاجوا ... وكانوا كثرة ... ثم تعاضدوا عليّ ، ورفعوني ومشوا بي نحـو البحر ، وقـد تحولت وجوههم الى وجـوه الـذئاب ، وأصبحت بين أيديهم مقيدالرجلين مكتوفاليدين لاحيلة لي في الافلات...

ورأى الرفاق والركاب ، ذلك المشهد اللئيم ، فانقضوا عليهم باقوى من قوتهم !.. فتخاذلوا ... وضعفوا ... يومئذ عرفت أن هؤلاءالغربيين، يستخذون للقوة ، ولا يتجبرون إلا على الضعف ..

. . .

ووصلنا الى لندن ، واختلطت بالمجتمع ،وبالصحف العربية،وبالرفاق

فاخذت أتفتح ، وأتعرف شيئاً فشيئاً على المصير المتوقع لبلادي . ...

وفي الجـامعة ، اخذنا في الدرس والاجتهـاد ، وفي الدعاية الى قضيتنا .. كانت لنا اذن تصغي إلى الاستاذ ،واذن تصغي إلى أخبار بلادنا .. كانت لنا عين على الكتاب ، وعين على الذي يعمل ضد وطننا ...

كنا بين طلاب يهود ما كرين ، وطلاب انكليز متأثرين بباطل اليهود !... كان اليهود يتحدثون في قاعة المحاضرات ، عن مظلمتهم على يد النازيين ، فيجعلون من الالمان وحوشاً مفترسة ، ومن اليهود ملائكة بررة ... ويرون ان على العرب ان يعطوهم دياراً واسعة تعينهم على تأسيس دولة تجمع شملهم ...

كان جوابنا عليهم يسيراً ، لا يعدو ايضاح ما يلفقون ... كنا نقول لهم في قاعة المحاضرات ايضاً : اذا كان الالمان المتحضرون قد تحولوا الى مفترسين ... فلأنكم كنتم بينهم كدودة الوحيد « تنيا » قد اعتزلتموهم في كيس يشبه كيسها،وتربصتم بهم الدوائر، واحرجتموهم فاخرجتموهم ... فليس عليكم الا ان تمزقوا هذا الكيس ، وتعيشوا مع الناس كما يعيش الناس ، وتترفعوا عما تفعل دودة الوحيد في الأجسام التي تأوى اليها ...

وبعد ، فاذا كان الظلم يداوى بالظلم ، كما تزعمون ، فما ينبغي ان يوجه الا للظالم ... اما اذا كنتم ترون ان ظلامة حفنة من اليهود

في المانيا النازية ، ينبغي أن تفتدى باغتصاب ملك ملايين من العرب ، وتشتيتهم ورميهم في العراء ، يهيمون على وجوههم مع الاطفال والنساء والشيوخ ، فأنتم أظلم من ظالميكم ... كذلك كنا نرد على باطلهم ...

فقد كنا نعرف وعد بلفور ، ونعرف تمهيد الانتداب الانكليزي لتنفيذ هذا الوعد ... ونشعر أن بلادنا أمام زلزال من هذا الوعد ... ولكن إذا كنا الغض البريء ، لم يكن يحيط إلا بالغض البريء ... كنا نصدق كل من يتبجح من رؤسائنا فلا نميز بين صادقهم وكاذبهم وضعيفهم وقويهم ... كنا مطمئنين الى قوتنا وقوة رؤسائنا ... بل كنا مزهوين بها ... وكان اليهودي يتظاهر بالتودد لنا ، والتقرب منا ... ويبدو كاليائس من مستقبله ، يرجو في مكر أن نكون عوناً له يوم تقع الواقعة ...



وليلة أعلن النقراشي من راديو القاهرة ، أن الجيوش العربية ستدخل فلسطين في منتصف الليل ، كان عندي في غرفتي عدد من الأصدقاء ... فلما سمعنا النبأ من الاذاعة ، حسبنا أن أمانينا دنت من القطاف وأنه لم يبق بيننا وبين تلك الأماني سوى جولة أو جولتين ... فضاقت بهتافنا الغرفة ، فخرجنا الى الشوارع في الليل ، نملأ الجو هتافاً ، ونعيد إنشاد كل ما نعرف من الأناشيد الوطنية ..

وجاءت أخبار الحرب ، فكانت كلها بشائر بتحرير الوطن ... كلها دواء لجراحه الدامية !.. كلها تجري في الطريق المؤدية الى الخلاص من النكبة المتوقعة ... وكان كل خبر عنها جزءاً من قلوبنا نعيــــده ونكرره ، ونستمتع باعادته وتكراره ... حتى إذا أخذت مدفعية العرب تلقي القنابل ، فتقع بالقرب من تل أبيب ، أخذتنا نشوة النصر ، وأقمنا الحفلات ، وأيقنا أن الحرب قد انحدرت الى النهاية ..



بين تلك الانتصارات عقدت الهدنة ... ثم عادت بعدها الحرب من جديد .. ثم جاءت الأخبار تحمل أسوأ الأنباء ... لقد كذبناها ، ولم نصدق منها خبراً واحداً ... ثم بدت كأنها صحيحة ... ثم ظهر أنها هي وحدها الصحيحة ... وأنها دمار ومجازر ، وهجرة ... ثم انقطعنا ... فلم نعد نعلم أين أهلنا .. أأصبح الذين يعولوننا يحتاجون الى من يعولهم؟.. حينئذ صرنا نجتمع صامتين ، لا نتكلم ، ولا نهمس .. يلتفت بعضنا الى بعض في يأس ، كالغرقى نرجو إيماءة تدل على النجــاة ... حينئــذ ظهر الطالب العربي ، عابساً حانقاً ، تموج على وجهه موجات من الضراعة ، تغطيها مظاهر القوة والاباء ... ثم اعتزل فما يظهر إلا نادراً في المجتمعات والشارع والسوق .

وظهر الطالب اليهودي مستأسداً ، عالي الصوت ، قد انتفخ بالزهو

والجبروت ، وبرز لؤمه فما يواريه ، وملأ شدقيه بالحديث عن شجاعة اليهود ..

في ذلك الكرب ، مررت بحديقة هايدبارك ، فسمعت من وراء الأشجار ، صوت خطيب وتصفيق جمهور ... وكان الضباب يواري البعيـــد ، ويظهر القريب . فلحقت بالصوت حتى وصلت الى ينبوع الصوت .. فاذا رجل قصير القامة غائر العينين ، قاتم الوجه والأسارير ، يتكلم في زهو ثم يهرج ، ثم يضحك ... والجمهور من حوله يضحكون لضحكه تارة ،ويسخرون،من بلادة تهريجه تارة أخرى ... فأصغيت اليه فلم أفهم ما يريد ... حتى إذا قال : غلبنـا سبع دول عربية ، ثم وصف العرب بما يتصف به قومه ، علمت أنه يهودي ...

فطار صوابي ، ونسيت ما بي من غم وهم ، وقفزت نحوه أطلب أن أتكلم مكانه ... فلما اشتد بيني وبينه الجدل وكاد يتحول الى قتـال ، اضطرب الجمهور ، وكان خليطاً من القارات الخمس ، وطلب الى اليهودي أن ينزل عن منصة الخطابة ويتركها للعربي ..

ألقيت كلمة غاضبة ، قلت فيها : سلوا هذا الكاذب ، ما شأن قومه من هذا الانتصار المزعوم .. إنه يعلم أن الذي حاربنا دولتان هما انكلترا وأمريكا بسلاحها وقوادها ، وأن المدنة كانت سبيل وصول هذا السلاح واولئك القادة وأن قومه رغم قوة هاتين الدولتين اللتين حاربتا عنهم ،

كانوا وراءها يتغلغلون في الجحور كما يتغلغل الجرذ في المراحيض عند الفزع ...

ولما انتهيت من كلمتي ، هنأني كثير من الحاضرين ،وكان بينهم أربعة فتيان من العرب رافقوني في طريقي الى بيتي ..

ومررنا بمطعم ، فدعوتهم للغداء ، فلبوا الدعوة،فجلسنا على السفرة، نعيد كلام اليهودي ، والرد عليه ، ونفرح لتهلل وجوه الغرباء بهذا الرد.. كنا نتسلى على ما نحن فيه من غم وكرب .

وعندما انتهينا من الطعام ، مددت يدي الى جيبي ، فلم أجد حافظة النقود في جيبي ، وكنت في ذلك اليوم غيرت بدلتي ، فسهوت أن أنقل ما فيها من نقود ، فذكرت لاخواني هذا السهو في خجل ، وأومأت الى أقربهم الى قلبي ، أن يدفع المبلغ ديناً عليّ .. فالتفت الى رفاقه التفاتة من يستنجدهم على طلبي ... فوجم الجميع .. فرجوت اليهم أن ينتظروني ريثما أصل الى غرفتي وأعود ..

فلما عدت ، وخلصنا من المطعم ، وصرنا في الشارع ، علمت أنهم جميعاً ، قد نفدت نقودهم ، وأنهم لا يملكون ثمن الفطور ... فطمأنتهم ، وذهبت بهم الى بيتي ، وهناك أخرجت جميع ما بقي من مال ، وقسمته بيننا بالسوية ... فأصاب كل واحد منا ما يكفيه نفقة عشرين يوماً ..

وقبل أن نتفرق اتفقنا على أن يوسع على إخوانه كل من يظفر بالمـــال قبل غيره ..

★ ★ ★

لم أفكر بالعوز في الأسابيع الأولى ، وشغلت بالكرب العام عن كل شاغل .. فلما مضى الاسبوع الثالث ، وأقبل الرابع ، أخذ الذعر يدب في قلبي ، فأصبحت أخاف العوز المرّ .. أتململ به في الغربة .. ويبـدو أن رفاقي الذين قاسمتهم نقودي كان شأنهم كشأني ، لم يظفروا بشيء من مال .. فقد غابوا منذ ذلك اليوم ، ثم لم يظهروا مطلقاً ..

لذلك أصبحت أحسب الأيام الباقية لنفاد ما معي في هلع ، وأفكر في الوجه الذي أستطيع معه أن أحصل على مبلغ أعيش بـه ، ريثما يأتي الفرج بما يوصلني الى بلاد العرب ..

فاذا سهلت لي الاماني الوصول الى ما أريد ، قلت: الى أين المفَرّ؟.. لقد سمعت بأذني من الاذاعة أن قنابل انفجرت في سوق الرملة بلدي ، وهنالك تجارة أخي .. أ أموات أهلي أم أحيـــاء يهيمون في طريق الهجرة ؟..

في تلك الأوقات ، التقيت بصديق من الطلاب العرب ، فتعانقنا كما يتعانق المتيمون الهائمون .. ثم أخذنا في الحديث عن نضوب جيوبنـا ..

ثم رجوت أن أجد عنده نفقة يوم أو يومين .. فعرضت له بذلك وقلت: بقي معي ثمن وجبة من الطعام ، سأنفقها على طعام الظهر .. فقال في خجل: إنني منذ أمس بلا مال ولا طعام .. ثم سكت .. فقلت بيني وبين نفسي: ما ضر لو صُمْتُ منذ الآن اختياراً ، ما دمت سأصوم بعد ظهر هذا اليوم اضطراراً ؟ ثم التفتُّ اليه ، وقلت : هذه ثمن وجبة لطعامك ، فأنا أدبر نفسي عند الظهر .. ثم ما زلت ألح عليه ، حتى قبل .. فذهب الى المطعم ، وافترقنا ..

جاء الظهر ، ومن ورائه المساء والصباح ، وانقضى اليوم الأول والثاني ، وأنا بلا مال ولا طعام .. فتحولت الى أضعف مخلوق في العزلة ، وأقوى مخلوق امام الجيران ..

ومررت على الجامعة ، ابحث عن طالب عربي يواسيني او يسليني .. فلم أجد غير الطلاب الانكليز ... كانوا كعادتهم يدرسون ، ويمرحون ، فاذا تحدثوا في نكبة العرب ، تحدثوا ، حديث امرىء عن اصطدام قطارين وقع في مناطق بعيدة ...

وفي صباح اليوم الثالث ، أفقت على يأس وضعف ، فلم أنهض من الفراش .. فسحبت اللحاف الى ما فوق رأسي واستغرقت في خدر لا تفكير فيه .. ثم رفعت رأسي ، ودرت ببصري في أنحاء الغرفة أبحث عن شيء أملكه ، فلم يقع بصري على شيء املكه .. سوى علبة من

تنك ، كانت امي ارسلت لي فيها كنافة نابلسية منذ سنة ، اكلت الكنافة مع الرفاق ، وبقيت العلبة .. ومشط صغير ، ومرآة صغيرة .. فحولت البصر ، عن هذه الثروة ، وطمرت راسي باللحاف ..

بعد ما يقرب من ثلاث ساعات ، سمعت جرس الباب يرن ، فنهضت متبرماً ، احاول ان احول البرم الى ابتسام قبل ان التقي بالضيف .. وفتحت الباب ، فاذا انا امام كهل لا اعرفه ، فقال : انا صديق اخيك ، وقد عرفتك وانت طفل ، وزرتك مع نفر من الاصدقاء في هذه الغرفة منذ سنتين ، زيارة قصيرة ..

فرحبت به .. فجلس يحدثني عن التجارة ، وعن أثر النكبة في خسارة هذه السنة وحدها .. حتى وصل الى الارقام ، وسرد منها ما لا أستطيع أن أحيط به أيام الراحة والهناء ، كان كأنه يقرأ جدولاً بأرباح كل صنف من صنوف الصادرات الضائعة .. ولما وصل الى الحمضيات ذكر أصحاب البيارات ، وذكر ما يضيع على كل واحد منهم من مال في هذا الموسم .. ثم رجع الى الواردات وأرباحها وأطال فيها ، بصوت عال ، لو كان لحناً حنوناً لعافته الاسماع . . .

كنت أمامه ، مائل الرأس متعباً ، لا أفهم مايقول، ولا أحيط برقم من أرقامه ، وظهر ذلك في تثاؤبي ، وفي إغماض عيني مرة بعد أخرى ..

وأخيراً تشجعت ، وقلت له : دعني من حديث يظهر لي أنه فوق مستوى فهمي وثقافتي .. فقال: انني أثقلت عليك بالحديث لأصلك بحديث آخر ممتع مفيد ..

فقد عدت أمس من مانجستر ، من عند تاجر عربي ، يعرف أن لنا محلاً تجارياً في دمشق ، هو فرع لمحلنا في الرملة ، فأراني مكتوباً من هـــذا المحل ، يطلب اليه أن يعطيني من رصيدنا عليه ما أحتاج من نقد .. فأخذت منه مبلغاً محترمــاً .. ولولا ذلك لانقطعت كما انقطع أبناء فلسطين تجارهم وطلابهم .. فقد حاولت خلال شهر ، أن أظفر بما ظفرت به في مانجستر ، فلم أكن ألقى عند عملائنا غير الترحيب ، والمجاملة المصنعة ..

ولما ملكتُ المبلغ الكافي ، كنتَ أنتَ أولَ من فكرتُ فيه ، فجئتك أتعرف على حاجتك ، عسى أن أعيد فضل أخيك علينـــا ، فاطلب ما تريد ..

فقلت : وأنا على شك من هذا الكرم ، اذا كان هنالك فضل فليس الآن وقت رد الفضل ، وأنت في ديار الغربة..

قال : ثق يا بن أخي ، أن أخاك أقال عثرتنا في يوم عسير .

قلت : « وقـــد رأيت الجد في قوله » حاجتي هي الوصول الى دمشق ..

قال : ليس أيسر عليّ من هذا الطلب ، ثم مد يده الى جيبه ، وأعطاني ما يكفي لهذه الرحلة ..

وبعد قليل ودعته ، ورجعت في فرح ، لا ينغصه عليّ إلا هم النكبة ، والمصير المجهول الذي صار اليه أهلي ..

وبينما كنت أعد النقود استمتاعاً بعَدّها ، رن جرس الباب رنة قوية ، فخفق قلبي ، وما شككت أن صاحبي قد ندم فرجع يسترجع باليسرى ما أعطانيه باليمنى .. فترددت في فتح الباب ثم فتحته مستسلماً للبأساء والضراء .. فاذا أنا أمام رفيقي الذي أعطيته ثمن غدائي الاخير ، واذا به مشرق الوجه يقول بصوت عال : قم نأكل ما نريد !.. وأبشرك أن معي ثمن طعام لي ولك ، يكفينا خمسة أيام ، ومعي أيضاً ما يضمن سفر واحد منا الى دمشق..

★ ★ ★

وفي الباخرة أخذ رفيقي يحدثني عن أيامه الاخيرة ، وعن الدرب التي وصل منها الى المال .. وكان حديثه ممتعاً ينفذ الى غرائز البشر أيسر نفاذ .. ولن ترى الغرائز عريانة الا في اليوم العسير .. وحدثته عن التاجر ، فقال : لو كان من أهل البيان لاستهل حديثه بالبشارة والنقود ، فزرع في نفسك صبراً على الارقام والصادرات والواردات .. ولا غضاضة على التاجر ألا يكون شاعراً .. فحسبه هذا النبل الكريم ..

ولما وصلنا الى بوردو صعد الى الباخرة طلاب فلسطينيون ثلاثة ، ففرحنا بهم وفرحوا بنا ، ثم حدثونا عما لاقوا وقاسوا ، وعن رفاقهم الذين خلفوا وراءهم ، وفيهم التاجر والطالب والمصطاف والمريض في المستشفيات .. كلهم انقطعوا .. كلهم يضطربون بين أظفار الفاقة والعوز .. ولكل واحد منهم قصة أقسى وأشد وأدهى من قصتنا ..

وما زلنا نلتقي في كل مرفأ نمر به في البحر المتوسط باثنين أو ثلاثة من الفلسطينيين يحدثوننا بمثل ما حدثنا به ركاب بوردو حتى اتجهت الباخرة نحو بيروت .

وعندما دنونا من ساحل البلاد ، وهب علينا نسيم ألفنا وألفناه ، ذكرت ذلك اليوم الذي سافرت فيه من فلسطين ، والحماسة التي كانت تهزني ، وتهز معي رفاقي ، والاماني التي كانت تملأ قلبي وعقلي .. وذكرت ساعة الوداع ، والمسمار الذي دققته على الجدار ، لأرفعه بيدي يوم أعود .. وبدت لي أمي الحزينة تودعني ، ثم تشتاق لي فتسترجعني بعد لحظة من فراقي ، وهي اليوم لا تعرف مصيري ، ولا أعرف مصيرها .. فانطلق لساني يجمجم بصوت خافت مرتعد : لا دار ولا جدار ولا مسمار بعد اليوم ، إلا بعقل جديد ، وقلب جديد ، وخلق جديد ..

ثم وصلنا الى دمشق ، فانطلق كلانا يسأل عن أهله وذويه .. وأين منه أهله وذووه ؟..

عرس البطل

ذهب الاستاذ (أ — ق) الى قرية أم الفحم،ليشرف على مزرعته.. وكان ذلك في شهر نيسان سنة ١٩٤٨، قبل انتهاء الانتداب الانكليزي، بشهر ونصف الشهر !..

فلما اقترب من القرية ، وصار بين حقولها ، رابه أنه لم ير فلاحاً يحرث الارض ، أو صبياً ينقل الزاد .. وزاد في ريبته ، أنه لم ير على الدروب أحداً يقصد الى القرية ، ولا أحداً يخرج منها !.. فالدروب والحقول خالية الا ما تدافع يتراكض على الروابي والسهول، من ظلال الغيوم المتسابقة في السماء ..

ثم أخذ يسمع أزيز رصاص يدوي خافتاً في الاجواء ، لا يتبينه ، ولا يعرف مصدره ، فهو شبيه بصفير غامض يأتي من بعيد !.. فارتعد !.. ثم وقف ، وقد بدت له أم الفحم كاليأس عابسة ،لا يؤنسها ديار من طير أو حيوان أو إنسان !..

فنصب سمعه على الأجواء يلتقط الأزيز والصفير ... ثم أرسل بصره يميناً وشمالاً ، على القرب وعلى البعد !.. فرأى أسراب الطـــير تقع على حقول القرى المجاورة ، ثم تطير كأنها ما تزال تهاجر من مكان الى مكان !.. إنها تهرب من الأزيز ، تفر من الموت ، تطلب الحياة !..

وإنه لكذلك ، رأى فتى يطل برأسه من خندق قريب منه . يومي اليه ، وقد تلثم ، فلم يظهر من وجهه إلا عيناه وأنفه ... فلم يشك في أن هذا الإيماء ، استدراج للشر ، بل رأى فيه الشر كله !..

غير أن الملثم ، لم يلبث أن كشف عن وجهه ، وصـاح بصوت مسموع : يا أستاذ !.. أنا صديقك فهد الضرغام .. فأسرع الى هـــذا الخندق تختبىء فيه ..

فقفز الاستاذ قفزة المطمئن ، ولم يزل يقفز حتى صـار الى جانب صاحبه ، وعانقه عناق الصديق المشوق ... ثم جعل يسأله أسئلة يتعثر بعضها ببعض ، يقول : مابكم يافهد ، وما هذا الخندق ، وأين أهل القرية ، وما ذلك الأزيز والدوي ؟..

فقاطعه فهد يقول : الحمد لله على السلامة !.. لقــد نجوت من شر أكيد !.. فعدد الذين قتلوا هذا الاسبوع من الوافدين علينا ثلاثة !... ومن القرية تسعة !.. نحن اليوم في محنتين : أولاهما هذه الرابية .. قد

وضع عليها اليهود مدفعاً رشاشاً ، وتحصنوا وراءها ، فأشرفوا بنيرانهم على القرية والدروب الموصلة اليها .. وها هي الرابية أمامك ،وأشار بيده اليها نحو الغرب !..

فالتفت الاستاذ الى حيث يشير !.. فبدت له الرابية هضبة عالية ، قد اكتست سفوحها بشجيرات محوطة بسحاب متقطع تتوارى الشمس وراءه وتظهر .. فإذا ظهرت ، رأيت دخاناً كالخيوط البيض يصحبه دويٌّ يحول الهضبة وشجرها وسحابها الى حصن مفترس ...

فالتفت إلى فهد ، وقال : هذا الحصن غول !..

فقال فهد : غول يفترس كل من ظهر له نهاراً ، فإذا جن عليه الليل ، كان النور والنار فريسة له .؟. وقد حاولنا تدميره ، وبحثنا المحاولة من جميع وجوهها ، فاعوزتنا القنابل ، ولم يعوزنا الفدائي الشجاع !.. إن القنابل مفقودة في قريتنا ، موجودة في القرى العربية المجاورة ... وقد كنا على أن نرسل بمن يأتينا بها ، لولا المحنة الثانية..

فقد وصل الينا خبر صادق أيضاً ، يؤكد أن اليهود يُعدون العدة لمباغتتنا بهجوم عام .. فشغلنا بالعمل لهذه المباغتة عن الحصن المفترس .. وأحصينا الشباب ، فلم نجد سوى مائتي شاب !.. أما الآخرون ، على

كثرتهم ، فقد انتشروا في فلسطين يخوضون المعارك في حيفا ويافا والقدس ..

ولم يكن بد من الاعداد للمباغتة أولاً ، فعجلنا بتوزيع الشباب على الضواحي .. وجعلنا نصيب كل جهة من جهات القرية الاربع ، خمسين شاباً ، لكل واحد منهم خندق خاص به ، يرابط فيه ليل نهار ، يترقب الهجوم المفاجىء ، ويمنع كل مجهول من دخول القرية.. وقد فصل بين كل مرابط وبين زميله فاصل طويل .. ووكلت الأمهات والزوجات بنقل الطعام والماء الى المرابطين في الليل تحت ستار الظلام .. وهأنذا واحد منهم يأتيني زادي ومائي كل ليلة ..

فقال الاستاذ : كان النضال حديثي في كل درس .. وهأنذا أعيش بين المناضلين !..

فهد : ستسمع من المجاهدين حديثهم ،إذا التقيت ببعضهم في بيت المختار .. وسأذهب بك اليه بعد الغروب..

الاستاذ : أين منا الغروب .. ونحن ما نزال في الضحوة العالية ..

فهد : لا تضجر ، يا أستاذي !.. فأنا أسليك هنا ، وخطبي لا تتأخر بالزاد عن الغروب.

الاستاذ : زوجتك تأتيك بالزاد ؟

فهــد : بل خطي !.. كتبنا الكتاب ، قبل هـذه المحنـة بأسبوع وعزمنا أن يكون العرس بعد عشرة أيام، فلما صرنا الى هذا الصراع ، تأجل العرس ، وشغلت بالجهد والأتراح ..

الاستاذ : بنت من ؟..

فهــد : هي رملة بنت صديقك عيسى الأسعد

الاستاذ : رملة ؟..

فهــد : لكننا لم نظفر بكتابة الكتاب ، إلا بعد أن صرنا حديث القرية كلها ... فأنت تعـلم أنني يتيم الأبوين لا أعرف أمي وأبي !.. رباني أخواي .. وكانت دارهما مجاورة لدار رملة !.. فهي من لداتي .. لعبنا معاً ، وحملنا الزاد الى الحقل معاً ؛ لا يبالي بنا أحد ، ولا نبالي بأحد .. فلما استشهد أخواي في ثورة ١٩٣٦ عطفت عليّ أمها وأبوها .. وكنت يومئذ حدثاً .. فظللت في رعايتها إلى أن بلغت أشدي، وأضحت رملة صبية .. فاضطروا أن يتغاضوا عني ، واضطررت أن أتغاضى عنهم ، ولكن المجاورة لم تقطع اللقاء !..

ومنذ سنتين عرفت رملة بالجمـال ، والذكاء بين الجميع ؛ فأخـذ يطلب يدها الشباب ، من الأباعد والأقارب ؛ وثارت المنافسة بين هؤلاء جميعـاً ، ثم تحولت المنافسة الى صراع ، كاد يتحول إلى شقـاق ..

وكانت الام تستشير ابنتها في كل من يطلب يدها ، وكانت رملة ترفض الجميع .. فإذا التقينا حدثتني حديثها مع أمها ، وبحثت وإياها السبيل السليمة الى زواجنا ..

ولما علم الشباب أن رملة معرضة عنهم جميعاً ، راغبة بي وحدي ، اصطلحوا عليّ .. فصرت البغيض عليهم كلهم ، وأصبحت لا أمر إلا بالمعرضين ، ولا ألتقي إلا بالعابسين .. حتى اضطررت أن أخالفها في دربها ، واضطرت أن تخالفني في دربي .. فلا نلتقي في الشهر مرة واحدة ، وإذا التقينا ابتسمت لها من بعيد ، ثم أعرضت عنها كأني ما ابتسمت ولا رأيت ... كان كل يوم جديد يفاجئنا بعناء جديد ... وكان كلما زاد هذا العناء ، زاد غرامنا اشتعالاً واضطراما ..

وبعد ما ضاقت بنا الدنيا بما رحبت ، وأصبحنا في يأس مرير ، أخذت أبواب التوفيق ، تتفتح لنا عفو الخاطر ومن غير جهد .

فقد كنت في بعض الليالي ، ابتعد عن القرية ، أبحث السلوى عن غرامي ، وأعمل الى الإصغاء لنجواي ، وأجاهد نفسي في الخلاص من هذا الضنى .. فالتقيت في البرية ، وأنا بعيد عن القرية ، بيهودي يحمل بندقية ، فانقضضت عليه ، فارتعد فخلعت عن كتفه بندقيته وحاملة الرصاص .. ثم أبلغته مأمنه .. وعدت على سكينة ممتعة ..

وفي النهار لقيني أحد الشباب الذين يطلبون يد رملة ، وتوسل اليّ أن أعيره البندقية .. ففعلت .. وأنا راض عن ابتسامة وفرحة ..

لقد شجعني ذلك على أن أغافل معسكرات الانكليز ، وأن أحوم حولها ، فأختطف ما استطيع خطفه من عتـاد .. فصرت كلما خطفت بندقية اعيرها في الصباح لفتى من فتيان القرية ..

ولم يمض زمن حتى عرفت بالجرأة والكرم ، وحتى صـار يحبني ويهابني جميع اهل القرية ... بل اخذوا يتحدثون عن غرامنا في عطف وحنان ..

وتراءى لي الجو مواتياً لإعلان الخطبة على رملة فأعلنتهـا .. فلم ينكر أحد هذا الاعلان .. ثم اجتمع كهول القرية، وتحدثوا في شأننا ، واتفقوا على القول : جميل القرية لفتى القرية !.. وهكذا كتب الكتاب.

واتصل الحديث بالحديث بين فهد وبين الاستاذ حتى أمسى المساء ومضى من الليل بعضه ، وأضحت القرية ليلاً مظلماً ، لا ضوء فيها ولا نار ، ولا حس ولا انس ، سوى همسات من بعيد من الذين يقومون في الظلام بما لم يستطيعوا أن يقوموا به في النهار !.. وسكت الرشاش ، فأضحى لا يدوي صوته الا بعد هدوء طويل ، فاذا دوى بين الأودية والحقول ، حسبت أنه وحـده ديار تلك الاودية والحقول ..

فخرج فهد من الخندق ، واضطجع على حرفه يرسل البصر الى الطرق المؤدية الى القرية ، ثم يرجعه الى القرية نفسها ، ويمعن في دروبها يتعجل وصول الزاد .. ويقلق لقلق الاستاذ وانتظاره ..

وأخيراً رأى سواداً يزحف نحوهم ببطء ، فقال : هاهي رملة مقبلة، وما أدري لماذا تأخرت اليوم ..

ولما وصلت عجل فهد ، وأخذ عنها الماء والزاد ، فكان اثنى عشر عرنوساً من الذرة الصفراء ، وكوباً من اللبن ، ورطلاً من البصل ، وخمسة وعشرين رغيفاً .. وكانت رملة متعبة فجلست تستريح على استحياء .. واتكأت على جدار الخندق ، فكانت كلما بدلت التكأة من مرفق الى مرفق ، رفت جفونها رفيف القلب وتمايلت تمايل الطرب . . وأرسلت عيناها شعاعاً يحول وحشة الخندق الى انس، وعسر الحياة الى يسر ..

فوقف بصر فهد عليها لا يحيد ولا يريم ، وغابت نفسه فيها ولم ينبهه الى ما هو فيه إلا قول الاستاذ : ما وراءك يا رملة من أخبار ؟.. فقد تأخرت !..

قالت : يحزنني أن أقول : ان زوج مصطفى الخالد ، أصيبت اليوم برصاصة في صدرها ، وكانت تجمع القش وراء جدران دارها ضحوة النهار !.. فاجتمع حولها اولادها يبكون .. وكانت تفتح

عينيها ثم تغمضها ، وهي تعالج سكرات الموت .. وكان أولادها ثلاثة : صبيين وبنتاً .. وكانت كلما فتحت عينيها صاحوا : الى من تركتنا يا أماه .. فترتجف .. تحس بالصوت والألم .. وتريد ان تتكلم ، فما تستطيع الكلام ، ولا الإيماء ، ولا الحركة ..

ولما نقلت الى البيت ، وقف الاولاد الثلاثة حولها ، وقد انحنوا عليها انحناءة الركوع ، يمعنون النظر فيها ، ثم يلتفتون يميناً وشمالاً ، يستنصرون بقوة تعيد لأمهم الحياة ، والحياة تضمحل في صراع أليم مع الرصاص النافذ للقلب ..

ولقد تأخرت ، لأنهم خرجوا لدفنها ، بعدما هجم الظلام فخرجت معهم ..

فقال الاستاذ : الحكم لله .

ورفع رأسه فهد وقال : وماذا غير ذلك يا رملة ؟

قالت : إن الكهول مجتمعون في بيت المختار ، وقد علمت انهم قرروا ، ان يطلبوا اليك ان تذهب الى القرى العربية المجاورة ، وتبحث عن قنابل ، فاذا وجدتها ، رضت نفسك على استعمالها ،وقمتَ بالهجوم على الرابية ..

ففكر فهد طويلاً ثم قال : عسى أن أثأر للأيتام ! .

فقال الاستاذ :

الناس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنى

قال فهـد : لمن هـذا البيت من الشعر ؟

قال الاستاذ: لابن دريد .

قال فهـد : ومن هو ابن دريد ؟

الاستـاذ : هو صـاحب كتاب الجمهرة ، وصـاحب المقصورة المشهورة .

فهـد : ما ألأم الاستعمار !.. سلط علينا الصهاينة يأخذون دارنا ، ويحاربوننا في بلدنا ، وحجبنا عن العلم وعن أدبنا وتاريخنا .

فقالت رملة ، وكانت في شغل عما هم فيه : اسمع يا فهد !.. أنا رضيت عن هذه المغامرة التي اختاروك لها ! .. ولكن ، اذا وفقت وظفرت بالقنابل ، ورجعت تطلب الرابية ، فأنا معك في الصعود اليها ما من ذلك بد !..

فقال فهد : نبحث ذلك في غير هذا الوقت ، يا رملة ، ولا بد أن تكوني راضية !.. فلنعجل الآن بالذهـاب الى بيت المختـار ... ونهض !.. فنهض الاستاذ ، ثم خرجوا من الخندق ، والزاد بيدهم يأكلونه على عجل .. وسلـكوا الدرب المؤدية الى القرية ، الى بيت

المختار ، متباطئين متفرقين ، يصغرون الهدف ويوارون الحركة .. فاذا التقوا بأناس من القرية ابتعدوا عنهم !.. واذا بصُر أحدهم بحفرة ، وقف عندها حتى يمر الجميع ، خشية أن يتعثر أحد في الظلام فيقع فيها ..

ولما وصلوا الى بيت المختـــار ، وكانت رملة قد عرجت على بيت أبيها ، طرقوا الباب طرقات خفيفة ، ثم أتبعوها بأخرى أشد منها قليـــلا .. حتى سمع المجتمعون ، فأطفأوا نور الغرفة ، ثم فتحوا بابها ... فالتقى ظلام الفناء بظلام الغرفة ، واختفوا جميعـــاً في عتمة الليل .. وبعد ان دخلوا ، أغلقوا الباب ، ورموا عليه الستار ، ثم أشعلوا الضوء من جديد..

رحب المختار وصحبه بالاستـــاذ وبفهد .. ثم أخذ المختار يتكلم فيقول : أنت تعلم يا فهد ، أننا كنا أمهلنا تدمير الحصن ورشاشه ، لانه تعذر علينا العمل السريع من أجله ، والآن بدا لنا أن نعجل عليه ، قبل المباغتة المنتظرة ، خشية الوقوع في جبهتين تضربنا الاولى من الامام والثانية من الوراء ، فنقع في حرج خانق ، قد يودي بالقرية ومن فيها !..

وقد رأى أهل الرأي في القرية ، أن يطلبوا اليك أن تذهب الى القرى العربية المجاورة ، تبحث عن قنابل يدوية ، فاذا وجدتها ،

رضت نفسك على استعمالها ، وقمت بالهجوم على الرابية ، وهدمت حصنها . .

فابتسم فهد ابتسامة الشكر على الثقة به ، ووافق !.. وطلب الى الحاضرين أن يدعو له بالتوفيق .. ثم قام يريد الذهـــاب . فقـــالوا بصوت واحد : الى أين ؟ .. قال للعمل بما طلبتم ! .. ورأوا الجد والعزيمة في وجهه ، وعينيـه ، فأشـرقت الوجوه وقبلوه وودعوه .

خرج والليل بهيم ، وذهنه لا يساكن الا الخطط المهدمة للحصن .. وما ابتعد خطوات ، حتى لمح شبح شخصـين واقفين في الظلمة ، فرابه وقوفهما في هـذا الوقت من الليل ، وكانا قريبين منه .. فتحفز يستقبل الشر !.. ثم لم يلبث أن عرفهما .. فاطمأن .. فقالا : علمنا بما تقصد اليه ، فانتظرناك لنوصيك بالحذر والتوقي !.. قال : بارك الله فيكما ، ومد يده اليهما يودعهما !.. فاستوقفاه يعظانه!.. فوقف .. فطال الوعظ ، فهم أن يقـاطعهما ، فخجل ، ولم يفعل !.. فانتقل حديثهما الى البطولة ، فاذا لـكل واحد منهما نصيب كبير منها .. الاول ، على ما يذكر ، كان في الحرب الاولى يستشار في أهم المعارك رغم أنه كان عريفاً في حرس القـائد ، والثاني يذكر أيضاً أنه أبلى ألمع البلاء في ليبيا والبلقان ، وكان لا يظهر الا في

المآزق ، حيث كان يخلص الجيش من المآزق .. وطال الحديث ، وتزعزع صبر فهد بالسأم .. فودعهما بفتور ، وركض يقصـــد الى دار رملة !..

وفي الدار ، طلب الى أم رملة ، أن تسمح لابنتها بالمرابطة في خندقه طوال غيابه ، وأن تتولى هي وصول الزاد والماء الى ابنتها .. فوافقت !. فهم بالانصراف !. فاستوقفه الأب ، وكان شيخاً عاجزاً ، وأخذ يوصيه ويعظه !. فأصغى اليه بصبر متهلل !. ثم طلب منه الدعاء المتواصل ، ثم خرج ..

★ ★ ★

عندما وصل فهد ، الى اول قرية عربية مجاورة ، وكان أهلهـا يعرفونه ، ذهب الى بيت المختار .. فوجد القوم في شغل شـاغل.. كان فناء البيت صاخباً بما فيه من رجال ونسـاء !. كانوا بين داخل يطلب سلاحاً ، وبين خارج مسرع ما تدري أين يذهب .. ونسـاء يحملن زاداً يسلمنـه لزوج المختـار ، ورجال يستلمون الزاد يذهبون به الى الضاحية !.. وفراش ممدود في ركن من أركان البيت ، قد اضطجع عليـــه جريح ، يحتملُ ألَمَ الجرح في صمت وصبر ، فلا يظهر من ألم الا أنين مكظوم تسمعه بين لحظـــة وأخرى .. وصبية الى جانب الجريح تضمد الجرح وليس معهـا دواء سوى المطهرات ! ..

كان القوم في معركة مع اليهود في ضاحية القرية . .

فوقف فهد بين الجموع ، لا يلتفت اليه احد ، غير سلام موجز ممن يعرفونه !.. وطال الوقت .. فأخذ يفكر فيما هو صانع : أيدخل مع القوم في معركتهم ، وقد أعلموه أنهم يخوضون معركة صعبة ، أم يذهب الى قرية أخرى يبحث عن مطلوبه ، فلا يتأخر عن خطبته المنتظرة في الخندق ؟.. واضطرب الرأيان في رأسه ، ثم عز عليه أن يرى القرية في محنة ثم لا يشركهم في انتزاع هذه المحنة !. فخرج يحمل على ظهره بندقيته ، يقصد الى المعركة ..

وما تنصف الطريق ، حتى رأى رجلاً مقبلاً ، يقول بأعلى صوته : هزمناهم .. هزمناهم .. صاروا في مستعمراتهم ..

فرافقه الى بيت المختار ... وهنالك تحدث الرجل عن المعركة فقال: دامت المعركة عشر ساعات !.. باغتونا على غرة منا ، فاضطربنا أول الأمر ، ثم ركزنا أنفسنا ، وهجمنا عليهم هجوماً صادقاً ... فكان أحدنا إذا نفدت ذخيرته ، يهجم بالعصا الى صفوفهم ، يطلب الموت ، فيرتد الموت على الأعداء ... وكان العطش أقسى ما قاسيناه ، وكان الرعب أقسى ما قاسوه ... كانوا كلما ظهروا علينا بالكثرة والعتاد ، تغلغل في صفوفهم نفر منا يزأرون ، فيجري الموت مع الزئير ، فيلقي في القلوب الرعب ، وفي الصفوف الفوضى ... فيرتدون ، ويرتجفون

كأنهم قد أخذتهم البرداء... وبعد عراك دام من الساعة الثانية عشرة ليلاً حتى العاشرة من صباح هذا اليوم ، انهزموا يحملون قتلاهم وجرحاهم.. وأظن أنهم صاروا الآن في مستعمراتهم وما زال شبابنا هناك يضمدون جراحات الجرحى ، ويدفنون الشهداء ... وعما قليل ترونهم بينكم !..

★ ★ ★

وفي الأصيل فرغ المختار ... فالتفت الى فهد يعتذر له عن شغله عنه ، ويسأله عن شأنه ، وعن شأن القرية ، وعن مطلبه..فأخبره بمحنة أم الفحم ، وعن حاجتها الى القنابل .. فبشره المختار ، أن عنده ما يطلب ، وأنه قادر ، على أن يروضه عليها ..

وما أصبح الصباح حتى كانت القنابل بين يديه ، وحتى كان عارفاً بفكها وتركيبها وقذفها ، والتوقي من غفلاتها !..

ووضعت سفرة الفطور ، فاعتذر فهد عن الطعام وقال : لا أشتهي غير النوم !.. ثم ارتمى على بساط ممدود وقال : دثروني ! فلم يلبث أن استغرق في نوم عميق ، ثم لم يستيقظ إلا بعد الزوال !.. فأكل بسرعة غريبة !.. ثم نهض وهو يمضغ آخر لقمة !.. وودع القوم ، واستلم الطريق ، ومشى متخفياً وعلى ظهره خمس قنابل ..

فلما دنا من أم الفحم ، وصار تحت مرمى الرشاش ، وكانت الشمس على الغروب ؛ حنا رأسه الى صدره ، وتضاءل ، وضيق من

خطوته ، وصاحب الصخور والشجيرات ؛ فمن رآه من بعيد ، رأى كومة من تراب ، أو قطعة من صخرة ، أو شجيرة تداعبها الشمس بشعاعها الوردي في الغروب .

ولم يزل كذلك حتى وصل الى مكان حراسته ، فقفز الى الخندق، فقفزت رملة لقفزه رعدة وهلعاً ... ولم تكن قد انتبهت لمقدمه ، وكان هو يحسب أن عينها عليه من بعيد !.. فلما عرفته عانقته ، وطال العناق فكان أروع لقاء ظفرا به منذ ترعرعا ومنعا عن اللعب في الحارة !..

قالت : لاشك أنك وفقت في طلبك .

قال : نعم !.. وحدثها بايجاز عن رحلته

قالت : قد دنا المغرب ، وبعد قليل تأتي أمي بالماء والزاد .. وفي نفسي أن أقول لك : إنني لا أستطيع أن أقعد ، وأنت صاعد الى الرابية، الى صاحب الرشاش !.. فقلقي عليك وأنت في تلك الطريق ، إن كنت بعيدة عنك ، أصعب عليّ من مشاركتك بالخطر الذي تُقدِم عليه !.. فلا تتركني لهذا القلق ، وخذني معك ، أؤنسك وأعاونك !..

قال : إذا كان هنالك من خطر ، فليقع عليّ وحدي وليس من الصحيح أن يقع علينا معاً ..

قالت : بل وقوعه علينا معاً ، خير لنا من أن يقع على واحد دون الآخر !.. فحياتك حياتي ، وفخرك فخري ، ونصرك نصري..

ليس لك أخ فيذهب معك ولا أخت !.. فأنا أخوك وأختك !.. فدعني وشأني ، ولا تجادلني فيما عزمت عليه عزماً لا يثنيني عنه أحد !..

قال : ليكن ما تريدين !..

قالت : ولكن علينا أن نكتم عن أمي هذا الرأي من أوله إلى آخره !.. فاذا جاءت في الغسق ، تختبيء أنت ، وآخذ أنا منها الزاد والماء ، ثم أسهل لها عَوْداً سريعاً ، فلا تعلم شيئاً عن رجوعك ، وعن خطتنا .. فإذا نجحنا تفاجأ القرية بالنجاح ..

قال : وهو كذلك !..

وبينا هما في الحديث،اقترب شبح الأم وسط الظلام !.. وكانت عين فهد على الدروب ،فلمحها ، فقام وجلس في ناحية تخفيه عن العيون!.. فلما وصلت أخذت منها ابنتها الزاد والطعام ثم قالت لها : أظن أن فهداً يعود الليلة !.. وقد يهاجم الرابية ... فأخبرني المختار أن يسهر هو وصحبه ، فإذا سمعوا صوت القنابل ،أو رأوا اللهيب يتطاير في الحصن، أخذوا طريقهم نحو الرابية !..

فأوصتها الام باليقظة ، وبالرجوع إلى البيت ، عندمايصل فهد .. ثم ودعتها ، ورجعت تقول : لا أستطيع أن أتأخر عن أبيك العاجز وأخوتك الصغار ..

وما بعدت الام ، حتى خرج فهد من مخبئه ، وهو يقول : علينا

أن ندمر الحصن قبل مطلع الفجر ... وقام الى القنابل ، وركزها على صدره ، ووضع البندقية على كتفه ، وحمالة الرصاص على صدره !..
وقامت الى كوز الماء واحتملته وكان ثقيلاً ، ووضعت المسدس في جيبها ..

وسارا على بركة الله ، يفصل بينهما أكثر من خمسين متراً ، ويجمع بينهما قلب واحد وإيمان واحد !.. ولما وصلا الى سفح الرابية جعلا يزحفان على الارض زحفاً ؛ فاذا وقفا ، مالا بجذعيهما الى اليمين تارة والى الشمال أخرى ، كما تمايل الشجرة إذ تهب عليها الريح أو النسيم ... وكان الجو صحواً ، تتلألأ في سمائه النجوم ، كأنها وحدها ترعى ذلك الليل البهيم ... بل كانت وحدها تشهد فتى وفتاة يقبلان على صراع يختلط فيه الموت بالحياة ...

وكانت الريح هادئة ، تهب بين ظلمات الليل ، كالحنان الرحيم ، عبر على قلوب الخائفين ، فيبدلهم بالخوف أمناً ، وعلى عقول الحائرين فيبدلهم بالحيرة ثباتاً وإقداما ..

وكان الصخر والشوك ، يصيب أرجل الفتى والفتاة برفق ، فلا يؤذيها ، ولا يحول دون المضي في طريقهما ..

فلما صارا قريبين من سفح الرابية ، كان الرشاش قد صمت ، فلم يعد يسمع له صوت !.. ثم طال صمته .. فدار في خلدهما أن أصحاب

الحصن قد ناموا ؛ وأن الحصن ، أضحى خالياً إلا من النائمين ..
فمضيا في سيرهما على تفاؤل وحذر !..

كان فهد متقدماً ، يحمل باليد اليمنى قنبلة معدة للقذف ، وبندقية باليد اليسرى معدة للضرب !.. وكانت رملة وراءه وضعت إصبعها على زناد المسدس ... وكان الظلام حجاباً يحجبهما بين الصخور والأنجم (الشجيرات) ..

ولما صارا ، على مائة متر من الذروة في الجهة الجنوبية ، وضعا بعض أحمالهما على الارض ، ووقفا يطوفان ببصرهما على جميع الجهات ، يبحثان عن ثغرة يتيسر فيها قذف القنبلة !..

وإنهما لفي هذا الحذر ، تراءى لهما شبح في الجهة الشمالية ، يتحرك على بعد منهما .. وكانت رملة أول من رآه ، فوضعت يدها على عضد فهد .. فالتفت !. فرأى أشباحاً ، تذهب ، وتجيء !. فهمس يقول : إنهم كثر !. فما عليّ إلا أن أفاجئهم جميعاً بالقنابل !. ثم همّ أن يجريَ نحوهم !..

فأمسكت رملة بعضده ، وهمست : الى أين ؟. اصبر نتبادل الرأي . . اننا أمام نفر لا نعلم عددهم . . ويبدو لي أنهم يزيدون على عشرين .. فنحن الآن : بين أن نعود الى القرية ونأتي بنفر يعدلهم ، وبين أن نتوارى عنهم ريثما ينجلي الامر !.

لم يأبه فهد لآراء رملة ، وسحب عضده من يدها ، وهم أن يهجم !. فتوسلت اليه أن يعود .. وأمسكت بيديه الاثنتين .. وهمست تقول : ارجع يا فهـــد !. إن رجوعك أشهى على قلبي من أعظم هدية تهـــديني اياهـا . . . فرجع فهد وقال : ننتظر متوارين كما رأيت ..

ومضت ساعة ، وضوضاء الحصن ما تزال صاخبة ، والاشباح ما تزال تذهب يميناً ثم ترجع يســـاراً . . ورملة وفهد يرقبان بحذر وامعان ..

فلما طال انتظارهما قالت رملة : ليس علينا الا ان نعود الى القرية ، ونعود بفتيان يعاونوننا على هذه المغامرة ..

فالتفت اليها فهد بغضب وقال : وكيف يكون ذلك ؟. أبعدما اطمـــأنت القرية الى فهد ، يرجع ، ليقول لهم لاتطمئنوا !. كلا !. اني لا أفعل ذلك ابداً ..

وطال هذا الحوار همساً بينهما ، ولم يسكتا الا عندما أحسا أن الحصن قد سكت !. وغابت أشباحه ..

وبعد صمت طويل ، قالت رملة : لم يبق علينا الا ان نتحقق أين صار القوم ! . فهم إما نائمون ، وإذن فينبغي لنا أن نصبر قليلاً حتى يغرقوا في النوم ، وإما ذاهبون من حيث أتوا ، وقد

تركوا حارس الحصن وحده !.. وعلى كل حال، فلست أنت الذي ستبحث عن مصيرهما، وانما عليّ أنا أن أبحث عنه !..

وانتظرا قليلاً !. ثم زحفت رملة ، نحو الحصن ، وأطلت عليه فلم تر فيه احداً .. ثم ارسلت بصرها يميناً وشمالا ، فلم تر جمعـــاً ، وانما رأت رجلاً واقفاً على بعد منها ، قد وجه وجهه نحو الغرب .. وكان وراءها فهد يرى ما تراه على غير علم منها .. فصوب بندقيته نحو الشبح ، ومشى اليه .. فلم ينتبه له الشبح حتى صار الى جانبـــه .. فلما رأى البندقية ، ارتعد ، ورفع يديه بالتسليم !. فشد فهد من وثاقه . . ثم قال له : سيكون صدقك سبيل وصولك الى مأمنك !. فقل لنا : كم عدد الذين كانوا عندك ؟. واين ذهبوا ؟.. وماذا كانوا يفعلون ؟.

ويبدو أن اليهودي قدر ان الصدق قد ينفعه ، ولا يضر بقومه، فأجاب وهو يرتعد : ليس في الحصن الآن احد غيري . . وكنا قبل هذه الليلة اربعة .. وقد نقل الى هـذا الحصن عتاد كثير منذ عشرة ايام ، إعداداً لمباغتتكم ، ثم عدل امس عن هـذه المباغتة ، لانهم اخفقوا بالمباغتات في القرى المجاورة ، ولأنهم علموا ان قريتكم محصنة ساهرة .. وقد عمل في تفريغ الحصن من العتاد عشرون رجلاً .. وفرغوا من آخر نقلة منذ قليل . . وهكذا ترى اننا نبغي السلام !..

فقال فهد ، بينه وبين نفسه : جزارون اذا ظفروا ، مسالمون اذا أخفقوا !.

ولكنه وجد الصدق في حديث اليهودي !.. فقد شاهد اخفاقهم في مباغتة القرية التي كان فيها ، ورأى بعينه قبل قليل نفراً يذهبون ويجيئون حول الحصن .. وأطل على الحصن هو ورملة فلم يجدا فيه احداً منهم !.. بعدما ألفيا الرابية كلها خالية منهم .. فقال للحارس : لقد صدقتنا القول ، فاذهب الى بيتك ، قبل ان تصل الينا النجدة ، فالقرية كلها في طريقها الآن الى هذه الرابية .. ثم فك من وثاقه ، وأتبعه بصره حتى غاب عنه ، وكانت طريقه متجهة نحو الغرب ..

وفي الحال جمع فهد ومعه رملة ، ما في الحصن من خشب ، ورماه فوق شوك يابس ، وأشعل فيه النار .. وكانا كلما همدت النار ، القيا فيها بالحطب ، حتى طال لسان اللهب ، وأضاء الاجواء ، ورمى بالانوار تلعب بين الحقول ، وعلى ذرى الاشجار ، وظهرت الرابية مضيئة ، تتراقص بالشعاع المنير ، ترسله نحو القرية ، كأنها تطلب الى اهلها ان يشاطروها هناءها بالخلاص من الظلام...

ورأى أهل القرية تلك الاضواء ، وكانوا ساهرين يرقبون

المعركة ، فأيقنوا بالنصر ، وخيل اليهم ان الشمس طلعت عليهم في الليل بعدما احتجبت عنهم في النهـار .. فجمعوا بعضهم وقصـدوا الى الرابية ، يجرون نحوها كالطيور ، لا يعبأون بالشوك ولا بالصخور، فوصلوا اليها بأسرع مما يرجون !.. وكان قد سبقهم بالوصول الى الحصن، نفر من شبـاب القرية تطوعوا لمعونة فهد ، وذهبوا نحوه ، قبل ان يفوز بهذا الفوز ، وكان عـدد هؤلاء يزيد على ثلاثـين شـــاباً .. لم يكن بينهم وبين الحصن أكثر من مائة متر عنـدما أضـاءت عليهم السماء !..

هنالك أخذوا يقبلون فهداً ، متسابقين الى تقبيله، فمن فاته تقبيل خده ، قبل رأسه ، ومن فاته تقبيل رأسـه قبل كمه .. وترامى الصغار على يديه يقبلونها ..

وظهر فهد فرحاً متواضعاً ، يقبل الصغار ، ويعانق الكبار.. تحسبه أباً للجميـع ، وهو ما يزال في ريعـان العمر .. ثم روى لهم ما لقي في القرية المجـاورة ، وما لقي عنـد الرابيـة .. وأعاد عليهم حـديث حارس الحصن .. وبشرهم بالخلاص من المباغتة .. فتمايلوا فرحاً ، ثم نصبوا الدبكة حول النيران وأخـذوا يرقصون ، ويغنون

فرحين مستبشرين ... وشاركهم بهذا الفرح فهد والمختار وكهول القرية !.

وكان الاستاذ بينهم ، فقال :

هذه ليلة محت الاتراح وجاءت بالافراح .

فقال المختار : سنعيدها قريباً في عرس فهد .

فصرخ فهد يقول: ألسنا في حفلة العرس.

فقالت رملة : فرحة النصر عرس البطل.

* * *

الرجوع إلى عكّا

« الأستاذ (م - س) هو الآن
يدرس اللغة الانكليزية في مدارس
الاقليم السوري ... علمت أنـه
رجع الى بلده عكا بعـد ما نزح
عنها .. فرجوت اليه ان يحدثني
عن تلك الرجعة ... فقال : »

خرجت من عكا مرغماً عام ١٩٤٨ ، وركبت زورقاً مع الذين أرغموا على ركوبه ... ولم يكن معي أحد من أهلي ، وليس في جيبي نفقة أسبوع ... ووصلت الى بيروت ، فعشت فيها أكثر من ثـلاث سنين ، على عوز وهوان .. فقد كنت اظفر بأجور العمل الشاق الذي لم أمارسه من قبل ، ثم أصرف منه ، فلا أجد عملاً آخر إلا بعـد بطالة ينفد معها ما ادخرت ، فأبيت على الطوى أياماً قبل أن أقع على عمل آخر ...

والصباح المنير ، يتحول إلى ليل بهيم ، إذا أفاق المرء على يأس من الوصول الى بلغة تسكّن جوعه ، والى سيكارة من دخان اعتاد أن يجدها مبذولة في علبتها ، والى عمل يقصد اليه !.. فكم تمنيت في مثل هذا الصباح لو رقدت الليل والنهار ، فلا أحس بالظلمات التي يحملها إليّ مثل هذا الصباح ..

غير أن ذلك العذاب المر ، جعلني أؤمن أن في طاقة المرء قوى كامنة ، تتكشف في الملمات ، دونها قوة الاسد ، وصبر الحمار !.. فلما عزمت على الرجعة الى عكا ، لم أر فيها مغامرة تخيف أو مشقة لا تطاق ، وتمثلت لي طريقها المجهولة الخطرة ، أيسر احتمالاً من أن أتبختر يوماً واحداً في شوارع بيروت ، خالي الوفاض ، بادي الانفاض !..

ففي خلال يومين ، اشتريت مسدساً ، وسافرت الى أقصى الحدود الجنوبية من لبنان .. وهنالك بحثت الطرق الى فلسطين بحثاً وضح في ذهني طريقي إلى بلدي ..

كانت بضعة عشر كيلومتراً ، أمشيها الى الشرق بين الجبال ، ثم أوجه وجهي نحو الجنوب ... فاذا اجتزت الحدود ، صرت الى منطقة أعرفها ، وأعرف طرقها الموصلة الى عكا ..

استلمت الطريق ، في يوم صحو ، عصر النهار .. فمن رآني ، رأى فتى طويلاً نحيفاً ، ربط جوربيه فوق بنطلونه ، ووضع إحدى

يديـــه في جيبه على المسدس ، وأسبل الاخرى تتحرك الى الامام والوراء .. وقد تصبب عرقاً ، وبدا وجهه أحمر قانياً ،ومشى في خطى متئدة واعية ، يملأ قلبه شوق حزين الى أمه وأبيـه ... وأمل رحيم يطردُ هَمَّ العوز ..

كنت امشي ، وانا لا اعرف المسافة التي مشيت .. لم تكن معي ساعة فأقيس الطريق بالزمن !.. والطريق غير سالكة ، والمشي بطيء ...

فلما تعبت !.. جلست على صخرة استريح ، فذهب بصري في الجبال والاودية ، فلم أر أحـداً ، ولم أسمع صوت أحـد ، فشعرت بعزلة كئيبة .

وإني لأهم باستئناف المشي ، رأيت على البعد ، دورية من الدرك اللبناني ، فاستبشرت بالأنس بين هذه الوحشة ، وقصدت اليهم أريد أن أعرف أين صرت من الطريق ..

ثم فطنت للمسدس الذي معي ، فخشيت أن يكون بينهم أحمق يأخذني بذنبه !.. فألقيت به بين صخرتين ، وأمعنت فيها النظر ، وفيما حولها ، لأتذكر مكان المسدس منها !.. ولما التقينـا بادرتهم بسلام باسم !.. وقلتُ : أين الطريق إلى فلسطين ... فقالوا بوجه قاتم : ومن

أنت ؟.. قلت : فلسطيني من عكا أريد أن أذهب إلى أهلي ... فنزلوا عن خيولهم ، ووضعوا القيد في يدي ... فحاولت أن أفهم ، ماذا يريدون مني ... فأغرقوني بصراخ غاضب ، وهموا أن يضربوني بالاسواط .. ثم أمروني أن أمشي أمامهم .. فأذعنت ،وصرت أركض حذر أن تدعسني الخيل ، فاذا أبطأت دفعتني الخيل بصدورها ...

وما زلت كذلك حتى وصلنا الى المخفر ، وكان ليس بعيداً ؛ وهنالك ألقوا بي في غرفة منفردة ، فيها معلفان ، وفرشة واسعة من رَوْثِ الخيل .. فعرفت أنني أويت الى الاصطبل ..

ثم دخلوا عليّ ، وأخرجوا ما معي من أوراق فتصفحوها ... ثم أمروني أن أخرج لهم الأوراق السرية .. فبهتُ .. وعلمت أنني عندهم جاسوس ... فشعرت أن نفسي تتحطم بين أضالعي ..

وأسرعوا الى ثيابي ، وخلعوها عن جسمي ..فأصبحت عرياناً .. عيناي شاخصتان ، وجذعي منحن ، وفمي مفتوح ، والقيد في يدي ... كنت بينهم كمن قبض عليه جزارٌ سكّينُهُ الحادة بيده ..

وبينا نحن في ذلك ، وصل فارسان من الدرك .. فبشروهما بالقبض عليّ !.. وقالوا : كفانا هزءاً من الصحف على عجزنا عن القبض على الجواسيس ...

فلما رآني أحد الفارسين ، قال : هذا أنت ؟. قلت : نعم !. فخرج

وأومأ لأصحابه أن يخرجوا معه .. وغابوا طويلا ، يتجادلون بصوت أسمع بعضه ويَغْمُ عليَّ بعضُه .. ثم عاد ، وفك القيد عن يديَّ، وقال: امض في سبيلك !. وليكن ما يكون !. ولكن إياك أن تسلك الطريق التي سلكت .. خذ بالطريق المُعْوِرة !..

كان هذا الفارس ، رجلاً عرفته قبل أشهر ، وكان عاطلاً، وكان يجتمع الينا في القهوة في بيروت ، نتحدث معه حديث العاطلين ، وكان عرف مني أنني قد أعود الى اهلي في عكا ، فوافق على رأيي ، وعرفني بما يعرف عن الطريق ..

وما بعدت عن الدرك ، حتى قصدت الى الصخرتين ، وتناولت المسدس .. وانطلقت أسرع في الطريق المعورة ، أدوس على الشوك فيتكسر الشوك تحت رجلي ، ويشب بعضه ، فيغرز في الجورب والبنطلون ، وينفذ الى ساقي وركبتي . . فأقف أتخلص من الشوك أنسله من ساقي وركبتي ، فاذا تعسرتْ عليَّ شوكةٌ تركتها ومضيت في سبيلي .. وكم تعثرتُ ووقعتُ على الارض ، ثم نهضت أصفق بيديَّ ، أنفض ماعلق عليهما من مَدَرٍ وغبار ...

فلما غابت الشمس ، ولحقت بها اضواء الغروب ، وتوارى الشفق، قدَّرتُ انني اجتزت طريقي الى الشرق. . فجلست على هضبة عالية استريح ، قبل ان أوجه وجهي نحو الجنوب ..

كان البحر عن يميني ، يبدو لي وهو بعيد عني ، كالهامد الساكن، وكان القمر يعابثه في قبة الفلك من فوقي ، ويرف نوره بين الاشجار بالقرب مني وبالبعد ، ويَزْحَمُ العتمة وهي تَزْحَمُه ، ثم يتبادلان المواضع ، حتى كأن تحت كل شجرة نفراً مختبئين .. وكانت الريح موجات ، هادئة وعاصفة ، فاذا هدأت سمعت وسوسة الغصون ، وتوهمت أنها تتناجى في الليل بما مر بها في النهار ، واذا عصفت ، حسبت عالماً يتأبط شراً بين دوح الغابات وأشجارها ، يعيش في السفوح والاودية !.

في تلك الليلة !. في تلك الاستراحة .. علمت ان هذه الطبيعة التي تبدو انيسة وديعة في النهار ، تتحول الى جبار مخيف ، يهيمن على الارض والجو والبحر في الليل ..

فراعني الموقف .. وجزعت .. بل دار ببالي أن أعود من حيث أتيت !.. ثم ذهب ذهني يجوب التيه الذي أمامي ، والتيه الذي خلفت ورائي !.. فلم أجد في أحدهما شعاعاً من رجاء ألقي بنفسي بين أضوائه !..

حتى اذا ذكرت العوز القاسي الذي لقيت في بيروت ، طار الوهم والخور ، وحلت محلهما القوة ، فنهضت أمشي نحو الجنوب ، بالعزم الذي صحبني أول رحلتي !..

صرت أهبط الوادي ، فينتصب امامي الجبل ، فأحسب أنني لا استطيع ان اتسلقه ، فاذا بلغت القمة بعد الجهد ، اشرفت على واد ، قد انحدر في زاوية شبه قائمة ، لا تكاد ترى فيها ماسكة للأيدي ، ولا ساندة للأرجل ، فأظن ان هذه الطريق ، لم يسلكها احد من سالف الحقب قبلي ، وقد لا يسلكها احد من بعدي ... ثم اطوف يميناً وشمالاً اكتشف الخلاص من هذه العقبة ..

وبعدما اجتزت مقدار كيلومتر ، وتيسرت سبيلي ، اخذت اشعر بالنعاس والعطش .. كنت كلما اسرعت الخطى سكن النعاس ، وزاد العطش ... وما زال يزداد حتى نشفت ريقي ، وتمنيت ، وانا ارى البحر من بعيد ان اكون الى جانبه ، فأشرب منه حتى ارتوي ...

عندئذ جلست تحت صنوبرة جلسةً مقهورة ، فأخذ يتغالب عليّ العطش والنعاس ، في مرارة تكاد تكون اصعب ما مر عليّ .. ثم اخذتني سِنَةٌ ، وأنا جالس ، حلمت فيها بالماء الغزير اعب منه وارتوي ..

ولم افق ، إلا على وحش اصغر من الحمار ، تلمع عيناه كجمرتين، يلحس يدي ، ويشم جبيني .. فاطلقت رصاصة من مسدسي ، فراح

يقفز بين الاشجار ، والاصداء تتجاوب وراءه بين سفح وسفح .. وبين غابة وغابة .. وانوار الصباح تظهره ، وتريني طريقه ، وتنتزع مني روعة المفاجأة ..

فقمت من مكاني ، أمشي على ضوء هـذا الصبـاح .. ولم ألبث ان رأيت ماء عين جارية ، تلمع عليها الأنوار ، على بعد مني قليل ، كان يخفيها الظلام .. فشربت منها حتى ارتويت ، ثم مشيت قليلاً .. ثم عدت اليها اشرب وارتوي مرة اخرى ..

وما خلصت من العطش ، حتى اصبحت مغلوباً للنعاس.. فقلت بيني وبين نفسي : انني الى جانب عين جارية .. والمـاء جلاب للخير ، جلاب للشـر ، فعليّ ان ابتعـد عنـه ما استطعت ، قبـل ان انام .

فصعدت في السفح ، ما يزيد على مائتي متر ، وهنـالك ، رقدت على اطمئنان خالص من الخوف والعطش ، خالص من فضيحة السفر في النهار . .

وعند الغروب افقت !.. فانتظرت سـاعة اطمـأننت بها الى الليل الستار !.. ثم نزلت الى عين الماء ، وشربت منها ، ثم سرت في سبيلي ، بعزم خالص من التعب والنعاس والعطش.. فما وقفت ، ولا استرخت ، حتى وصلت الى قرية « الريب » اول قرية فلسطينية ، قبل ان يمضي

من الليل غير القليل .. فأخذت اخوض في بساتينها على شيء من الاطمئنان !. فموسم البرتقال في آخره ، ونواطيره قد رحلوا ، ولم يبق منه الا العفارة .. ورغم ذلك رجوت ان اظفر ببرتقالة واحدة ، ألهي بها معدتي ، فلم اظفر بشيء ...

وبينما انا بين احضان شجرة ، انقل نظري عليها من غصن الى غصن ، ارجو ان ارى عليها ثمرة ، سمعت اصواتاً تقترب من بعيد .. فالتفت نحو الصوت ، فاذا جماعة تمشي مسرعة في الطريق العامة .. فأمعنت فيهم النظر ، فعرفت انهم دورية يهودية .. فالتصقت بالشجرة ، ثم عانقتها حتى كدت أصير جزءاً منها .. فلما صاروا أمامي ، كانوا يتلفتون يميناً وشمالاً .. وكانت أعينهم تدور على جميع الأطراف ، خائفين مخيفين !..

والتقت عيناي ، بعيني واحد منهم ، فما شككت أنني وقعت في الفخ ، وغفلت عن أنني محجوب عنهم بظلال البرتقالة التي أعانق تحت الليل ... فمرت دقائق ، أو ثوان ، تمثل لي فيها صراع ، توهمت معه أن دمي ودمهم سيجريان على الارض ..

ولكنهم مروا .. ولم يروني !..

فلما بَعُدوا ، وبَعُد صوتهم معهم ، قبلت الشجرة ، وخرجت

الى الطريق العـــامة ، وسرت باتجاه مستعمرة نهاريا .. وكانت تلمع في ظلام الليل بمصـابيـح الكهرباء ، وكانت هـذه المصابيـح توحشني ، فأحسب أن أهلها جميعاً أيقـاظ يشـرفون من بعيد على الطريق العامة ..

وكانت الطريق العامة نفسها محوطة بالرهبة .. فقد وضع في نهاية كل مائة متر منهـــا عمود للهاتف والبرق .. فكنت أتوهم أن عند كل عمود حارساً على الطريق ، فإذا صرت اليـــه ، ولم أر عنـده أحداً ، اطمأننت وتجدد نشـاطي ، حتى اذا اقتربت من الذي يليه ، عاودني الوهم ، وتهيأت لصـراع أيسره أن يقبض عليّ وأسجن !..

ولم أزل كذلك حتى اجتزت المستعمرة ، ووصلت الى قرية المزرعة ... وكنت أعرف فيهـا صديقـاً لأبي .. كان يزورنا في عـكا ، وكنا نزوره في المزرعة ، وله ولد من لداتي اسمه خالد . . . تركته في بيروت يعيـش عيشـــاً رافهـاً ، لأنه صانع ماهر ..

فيممت نحو بيت الصديق ، فارتاع الأب إذ رآني ، أشعث أغبر ، أطرق بابه بعد منتصف الليل ، ثم أقبل عليّ بوجه يطوي بين اشراقه جهداً وجزعاً .. فبشرته بحيـاة ابنه الرافهة ، ثم ارتميت على كرسي عنده .. وكانت زوجـــه نائمة ، فاستيقظت على طرق

الباب ، والحديث ، فلما رأتني استبشرت ثم قالت : من أين أتيت ؟..

قلت : من بيروت ..

قالت : وهل رأيت خالداً ؟

قلت : نعم تركته في بيروت على أحسن حال !..

قالت : غاب منذ عشرة أشهر ، لا نبأ عنه ولا خبر ، ليتك أتيت به معك !. ثم خرجت .

ثم عادت ومعها الطعام فجلستُ على السفرة وحدي .. ووقفت الأم دامعة العين ، والأب الى جانبها مضطرب حذر ، يروي بصوت هامد أن اليهود جمعوا في المزرعة جميع العرب سكان القرى المجاورة ... ولم يذكر السبب ، ولم أسأله عنه ... والتهمت طعامي ، وشربت وراءه كأسين من الماء ، ثم انصرفت عنهما ..

ما زلت أمشي في خطى ثابتة ، حتى صرت في ضواحي عكا ... وأطللت على ضاحية بلدي ، وقد أفاقت على ضوء الصباح ، وابتلت بندى الفجر .. فصرت بين أشهى الأجواء الى قلبي ، وأعذب همس على أذني ، وأحلى أريج موصول بذكرياتي ... فمن تلك البساتين أسمع صوت طفولتي وحداثتي ، وعلى تلك

الدروب أرى تقزي وركضي ... وهـذه الفواكه المحرمة عليّ الآن تهتف بي ، تريد أن تقع في جيبي . . . إنهـا تعرفني وأنا أعرفها . . . كانت لأصـدقاء ولدات وأقرباء ، قلوبهم مثـل قلبي ...

أما اليوم ، ففيها سحن منكرة ، ولغات منكرة،وقلوب مجرمة، لو عرفتني لمزقتني ..

وأنا في هذه الخواطر ، رأيت فتى عربياً ، يجري على دراجة ، فطلبت اليه أن يحملني وراءه على الدراجة ففعل !.. وهو يظن أنني مثله راجع من بعض شـأني .. فجرت بنا الدراجـــة تسرع اسراع ذكرياتي ، في جريها بين خاطري وخيـالي .. كنت وراءه ألتفت الى اليمين ، والى الشمال ، أريد أن أرى كل ماحولي، فأنا مشتاق الى كل ما حولي !..

وفي مداخل عكا ، وَقَفَتْ صاحبي ونزلت !.. ومشيت أجتنب الشارع ، وأعمد الى الطرق الضيقة ، فكانت أبواب الدور تفتح ، فيخرج منها اليهود ، فأنظر الى حذائي ، أواري ملامحي ..

لم أر في الأزقة إلا ثلاثة من العرب ، فهفا اليهم قلبي ، وكدت أن أسلم عليهم ، لولا أني خشيت أن يستوقفني واحد منهم ، فيفضح أمري ، وأقع في الفخ ..

ولما وصلت الى دارنا ، وقفت أصغي الى أصوات من في الدار .. فمضت ملاوة حسبتها ساعات ، لم أسمع خلالها صوتاً .. فراني الأمر ، ودار ببالي أسوأ ما يدور بالبال !. أهاجروا ؟.. أم قتلوا ؟.. أم شردوا ؟ .

ثم سمعت صوت أبي ، فكبست زر الجرس ، ففتح الباب !.. ودخلنا الغرفة ، فجلس أبواي الى جانبي ، وجلس أخي الصغير أمامي !... واخذت أمي تعانقني ، وتطيل عناقي ... ثم تسألني : كيف ذهبت ، وكيف عشت ، وكيف رجعت ؟ . . فأجيب بجهد ، وأنظر اليهم بعينين يغالبها النعاس تتفتحان وتتغمضان . . ثم غلبني النوم ، فقمت الى السرير ، واستسلمت للرقاد !..

فلما أفقت ، هممت أن أخرج الى باحة الدار ، فهمس أبي في أذني يقول : دار عمك سكنها اليهود ، بعدما شُرد هو وأهله ، فأضحت نافذةُ داره المطلة علينا خطرة .. لذلك لا أرى ان تخرج يا بني في النهار الى باحة الدار !.

قلت : وأين المكتبة ؟

قال : ذهبت بالتفتيش المتوالي ! .

قلت : والصحف العربية ؟.

قال : ممنوعة !..

هنالك سكت اقول بيني وبين نفسي : أصبحت سجين هــــذه الغرفة ! ..

وهكذا قضيت خمسة وستين يوماً ، عند اهلي ، لا أخرج من الغرفة طوال النهار .. فإذا ذهب النهار ، جلسنا في ارض الدار على العتمة ..

ورغم كل ذلك ، كان لي في الايام الاولى ، بعض السـلوى بهذا الجو الذي درجت فيه .. فقد كانت الشمس تدخل من النافذة الى الغرفة في المواعيد التي كانت تدخل فيها ، وكانت الحمامة تغرد على شجرة البرتقال في الصباح التغريدة المزوجة بألحان الدار ، وكان صوت أبويّ يرن في أذني صباح مساء .. وكان خيالي يطوف في هناء على حداثتي وطفولتي ، ويعيدها إليّ في ابدع صورها ...

لكن هذه الايام الاولى ، مرت سريعاً ... فأخذ خيالي يضعف عن ذلك الطواف ، ثم ما زال يضعف حتى خبا .. ثم سجن معي بين جدران الغرفة ..

فصرت ألهو ، بالانتقال من الحشية الى الكرسي ، ومن الكرسي الى البساط ، ومن اول الغرفة الى آخرها .. حتى سئمت وصار السجن اشهى الى القلب من هذه الحياة ..

وجاءت الاخبار ، ان ثلاثة من الفتيان العرب ، قبض عليهم ، ومزقت اجســـامهم ، ثم ألقي بهم في السجن ، لانهم رجعوا من هجرتهم متسللين ... وان البحث عن العـائدين جار في جد ونشاط !..

فزادني هـذا الخبر غماً على غم ، وأغلـق علي ابواب النجـاة ولم يترك لي إلا باباً واحداً ، هو العودة الى حيث اتيت..والعودة عرفتها!.. انها طريق معورة ،وحراس حمق قســـاة ، ورهب ليس فيه شعاع من رغب ، وفراق لا امل معه بلقاء ..

على هذا الباب المتجهم وقف بالي ، فأصبحت واجماً نهاري كله !.. لا أأبه للداخل الى الغرفة ، ولا الى الخارج منهـــا ، وقبعت على الحشيـة لا انهض ولا اتحرك ، ونقص اكلي حتى نحل جسمي وفتر عزمي ..

وكان أبواي يشفقان عليّ من هذا الوجوم الدائب ، ومن الهزال الذي صرت اليه .. ويخافان ان اقع في مرض عضـال لا ينفع فيه دواء ، او تتناولني اظافر اليهود ، فأتمزق كما تتمزق الفريسة بين انياب الذئاب.. ويريان ان العودة على مافيها من خطر وغصص ، فيها شعاع من رجاء الخلاص من الموت ...

لذلك اخذا يعملان بجد ، على تدبير نقود تعينني في غربتي ، ريثما

اجد عملاً محترماً !. فلما اعياهم الحصول على النقود ، باعوا سجادتين ، واعطوني ثمانين جنيهاً ، وعينوا يوم العودة ، واوصوني ان أخبر بالاذاعات خبري..

وفي اليوم الاخير ، يوم الوداع ... لم يذهب أبي الى عمله ، ولم تعمل أمي عملاً في البيت .. بل لم يلعب اخي الصغير ! .. لقد اجتمعنا على حزن ، لم يتجلد فيه سوى والدي !.. كان يتحدث عن المغامرة ، وعن التوفيق يظفر به المغامرون !. ويقول وراء كل حديث : لاتحزنوا .. فلا بد من اللقاء ..

ولما مالت الشمس الى الغروب ، ودنت ساعة الرحيل، قالت لي أمي بصوت خافت لا يكاد يسمع :

والآن !.. قل لنا يا بني ، ماذا تشتهي من الزاد ؟

قلت : أشتهي ألا أفارقكم يا أماه ..

فترامت علي تقبلني ودموعها ممزوجة بدموعي !..

وصلت الى دمشق

« حدثني بها (خ — س)
في دمشق ، وهو من أهالي
صفد » .

وصلت الى دمشق ، عصر يوم حار ، ليس معي سوى ابني وأمه، بعد ما اجتزنا طريقاً مضنية ، مشيناها ثلاثة أيام ، ونزلنا في فندق الأندلس الكبير في البحصة ..

لم يكن ابني أتم الثانية عشرة من العمر ، وكان يبدو كقضيب الحور الذابل ، وقد لفحته الشمس ، فتغيرت ملامحه ، وصار كالخلاسي ، وأخذه فتور ضارع ، تتبين في ضراعته أنه دائب الخوف من أن تخذله قواه ..

وكانت أمه كالغريق انتشل من فم الأمواج ، فهي تتحسس الحياة ببطء ، والأحزان تسكن في عينيها وأساريرها ... فقد أشيع أن

ابنها الفتى استشهد في إحـــدى الوقائع ، قبل الهجرة بعشرة أيام ، وأجهضت ونحن في الطريق ، ثم مشت ذراعاها متكئتان : ذراع تحت إبطي ، والأخرى على كتف ابنها ..

أما أنا ، فكانت تأخذني سنة من النوم خاطفة ، وأنا ماش في الطريق ... وما كنت أعلم حتى ذلك اليوم ، أن النوم يختلس المجهود المرهق ، فيرميه بسنة خاطفة ، وهو منتصب القـــامة يمشي على رجليـه ..

وما صرت الى بهو الفندق ، حتى أحاط بي النازلون ، من أهل حمص وحماه والجزيرة .. وأخذوا يسألونني عمـا لقيت ، وعما خلفت ورائي ... وكان بينهم من حارب معنـا في فلسطين ... فأجبتهم جواباً متقطعاً متحطماً ..

لم يكن هؤلاء المتلهفون على أخباري ، كأولئك الذين يسمعون عن جموح السيارات براكبيها ، فلا تشغلهم فجائع الناس إلا لمحـة ، ينصرفون بعدها الى اللهو بالتحدث عنها ... لقد كانوا أخاً فجع بأخيه.. كانوا وطناً فجع بأحد جناحيه ... كانوا يرون أن غولاً أعرق في الافتراس من آتيللا قضى على قطر من أقطارهم ، وأخـــذ يتأهب للقفز عليهم ... فهم متلهفون على أخبارنا ، مشفقون من مصـــير كمصيرنا !.

وكنت على ضعف شديد ، لا نصير لي من صوتي ، وصبري ...
وكان ذهني كمصباح الإعـلان يشتعـل وينطفىء ، وكان لساني بين يدي ملقط لا سلطان لي عليه ... يمسك به متى شاء ويطلقه متى شاء!..
كانت ذاكرتي لهيباً تؤججه رواسب من ليالٍ طوال سهرتهـــا على جهاد دام أشهراً ، ثم خلّفَتْ ثكلا ، وهجرة ، ومستقبلاً كالربع الخالي فارغاً ...

لذلك تركتهم ، وما يزال سائلهم يسأل عن المستقبل ، وعن مصير سورية وبلاد العرب كلها ...

وقبل أن أبتعد ، قالوا بصوت واحد : نحن هنا في خدمتك ، فلا تخجل من أن ترجع إلينا عند ما تريد ...

واتفقت مع صاحب الفندق على الاجرة ، ثم صعدت الى سريري، واضطجعت عليه ، وغرقت في النوم ..

كان النوم لا يزال عقدة متمكنة من الجفون عندما أفقت ، وكانت جميع أجزاء جسمي ما تزال متعبة ، وتكاد تكون موجعة .. وأفاقت زوجي .. ودقت ساعة الفندق ، فاذا هي ست .. فعجلت أخرج من الفندق أرجع بفطور الصباح !..

وإني لفي السوق أشتري ما نَطْعَمُ ، اشتعلت المصابيح .. وجن عليّ الليل ؛ فاذا أنا في المساء ، وكنت أحسب أنني في الصباح ...

وعدت الى الفندق أحمل طعام العشاء ، بدلاً من فطور الصباح .. فاذا الولد وأمه قد عادا الى سباتهما ، فهما يغطان في النوم ... فأشفقت من أن أوقظهما ، واضطجعت أرقب أن يفيقا بعد قليل ، فأخذني مثلما أخذهما وغبت كما غابا في الرقاد !..

وفي الصباح ، أصبحت صاحياً لا نعاس ولا تعب ، وأصبح الصبي يأكل كعكة ، وهو يلعب ، ويتحدث ، وينتقل من سرير إلى سرير والشمس مطلة علينا من الشباك ممدودة على أرض الغرفة ... وعينا أمه محيطتان به ، في هناءة تلمحها على الجبين ، وتلمح وراء هـــذه الهناءة ذكريات مرة ، متوارية تريد أن تظهر !..

وطلب الصبي طابته ، وطيارته ، وكان يلعب بهما في البيت ، وكانتا منسيتين مع كل ما نسيناه،أو تركناه ... فتغير وجه الأم،وأخذت ذكرياتها المرة ، تأخذ سبيلها الى الأسارير !..

ففطنت الى أن عليّ أن أحول بينها وبين التذكر ، بأحاديث تتصل بما نحن فيه .. فوضعت الفاكهة بين يدي الصبي ، وبادرتها أقول : أما آن لنـــا أن نأكل ؟.. وقمت الى الكيس الذي ملأته مساء أمس ، ووضعته على أرض الغرفة ... فشغل الصبي بالفاكهة وجعل منها طـابة يلعب بها ، يقذف بها عليّ مرة ، وعلى أمه أخرى .. وأمه تبسم له ، وتحاوره ، والطعام بين أيدينا نأكل منه !..

وما انتهينا من الطعام ، حتى أسرعت أقول : علينـا أن نتدبر شأننا منذ اليوم ... فالفندق ، وطعام السوق ، نفقة لا يقدر عليها إلا المطمئن لحـاضره ومستقبله .. فقالت : ماذا معك من مال ؟.. قلت بقي معي خمسة وثلاثون جنيهاً !.. قالت : فأنا عندي حَلْيٌ قد يساوي في البيع أكثر من عشرين جنيهاً .. ثم قامت إلى ثوبها المعلق على المشجب ، وفكت خيوط جيوبه ، وجاءت بالحلي ، وأعطتني إياه ، وهي تقول: لولا ساعة حظ ذكرتني بهذا الحَلْي ، قبل خروجي من دارنا بيوم واحد ، لكان كله الآن في يد العدو تعبث به كما تريد ... فاتفقنا على أن نبيع هذا الحَلْيَ ، ثم نستأجر غرفة ، نعيش فيهـا بتقتير ريثما يأتي الفرج !..

بعد يومين من وصولنا ، خرجنا من الفندق نحن الثلاثة ، نبحث عن غرفة متواضعة ، فدرنا من أقصى الميدان الى أقصى المهـاجرين ، وكانت أزمة السكن على أشدها ، نسأل السماسرة ، ونقف على كل سمسار في كل حارة ؛ فلم نظفر بمأوى إلا عند أرملة ، في أعلى حي من المهاجرين ، ليس بينـــه وبين ذروة جبل قاسيون إلا القليل من السفح !..

فالدار ذات ثلاث غرف !.. لا طين ، ولا دهان ، ولا رشة كلس .. غرفة منها للأرملة ومعها ثلاثة أطفال ، ونسكن نحن غرفة ،

وتبقى واحدة معدة للايجار .. والمطبخ مشترك ، والخلاء في البرية ، والبرية سفح الجبل الذي نحن فيه !..

فلما تم الاستئجار ، وصعدنا الى سطح الغرفة ، وأشرفنا على دمشق تحوطها الغوطتان !.. كانت أمامنا أبدع مشاهد الطبيعة ..فالجنائن تحيط بالقصور ، على السفح المنتهي بالسهل ، والبساتين ممدودة في الشرق الى أبعد من مدى البصر ، موصولة بالجبال من الغرب ، حيث جبل الشيخ مكلل بالثلوج ، يعابث الشمس وينافسها باضوائه الناصعة البياض ، والضباب في سماء البساتين مسافر جواب ، ينتقل من بستان الى بستان !.. وقطار سكة الحديد يصفر وراء الأشجار البعيدة، كأنه مزمار الحور والرمان !.. فإذا ظهر القطار ، ركض يلحق به دخانه يرقصان بين تلك الالحان !..

أمام هذه المشاهد ، رأيت دموع زوجي ، تتحدر على خديها وتقول : يا لها سعادة لو كان ابني معنا يرى ما نرى ، ويستمتع بما نستمتع به !.. ثم أخذتها هزة من البكاء ، وصرخت تقول : أهو شهيد أم جريح ؟..

فقلت كالمطمئن الواثق : قلبي يحدثني أنه حي !.. وأنه في أمان!.. ثم عجلت أحولها عن هذه الذكرى ، أقول : عجلي نعد الى الفندق وننم الليلة ، ثم نبكر لاشتراء أثاث للغرفة ...

وفي الصباح ، تركت الفندق ، مع زوجي وولدي ؛ وذهبنا الى السوق نبحث عن فراش ولحاف ننام فيها ، وعن حصير بلدية نمدها تحتنا في الغرفة المستأجرة ..

سَهُلَ علينا اشتراء اللحاف والفراش ، أما الحصر البلدية ، وقد ندر استعمالها ، فلم نهتد الى بائعها إلا بعد جولة في الاسواق متعبة !.. كان الذين يدلوننا على سوق هــــذه الحصر ، يشيرون الى سويقات متشابكة لا نعرف واحدة منها ، فنطبق ما أشاروا على الجهات الأربع ، فنغلط ثم لا نفطن للغلط إلا بعد مشي طويل !.. فكم مشينا الى الشرق حتى إذا بعدنا ، عرفنا أنها في الجنوب !.. وأخيراً ظفرنا بمـا نريد ، وقصدنا الى غرفتنا عند الأرملة العجوز !..

جلست إلي زوجي ، بعد ما نام الصبي ، نتحدث عن عمل أعمله، قبل أن تنفد دراهمنا ... فعرضنا جميع ما يمكن لمثلي أن يعمل في بـــلد جديد !.. ذكرنا كتابة « العرضحال » ووقفنا عليها طويلاً ، وكدت أعزم على أن أعمل بها ، لولا أنني ذكرت أخيراً ، حكاية جارنا الذي ذهب الى بيروت ، قبل عشر سنين ، فلما فرغ جيبه من المال،اشترى منصة وكرسياً ، وجلس الى جانب الذين يكتبون (العرضحال) ، عند السرايا ، فلما غاب عن منصته لبعض شأنه ، عاد فلم يجد المنصة والكرسي ؛ فبحث عنها ، فاذا زملاؤه القدماء قد كسروهما .. فلمـا

عاتبهم بلين ، قالوا بحنق : هذه صناعة لا تسُدُّ رَمَقَ القدماء من أصحابها ، فكيف إذا انضم اليها كل يوم واحد مثلك!.. وانتقلنا بالبحث الى العمل في البناء ، ثم الى الكتابة عند تاجر ، فلم نتفق إلا على أن أعود الى رفاق الفندق ، وأتحدث الى بعضهم عن عمل يدبرونه لي ، أو يعينوني عليه ... وكان النعاس قد دب في رؤوسنا ، فاضطجعنا نرقد على أمل نسكن اليه !..

وفي الصباح ذهبت الى الفندق ، فوجدت بعض الرفاق ، وكان بينهم الذي عرفته في حروب فلسطين ، فأسررت اليه بما أنتويه ... قال : أنا تاجر غنم ، وهأنذا ذاهب لأبيع بضاعتي ... فلك منها ماتريد ، بالسعر الذي تصل اليه في السوق .. ولك خصم بعده يرضيك !..

كانت سوق الغنم أرضاً واسعة !.. قطيع رابض هنا ، وقطيع رابض هناك !.. وبضع شياه يقودها رجل ، وبضع شياه تقودها امرأة ، عصاها بيدها ، فهي كالرجال لولا ثيابها الزاهية الملونة المختالة ... وصراخ بعضه بعيد ، وبعضه حول أذنيك !.. وأناس في لباس البدو ، وأناس في لباس الحضر ؛ ينتقلون بين القطعان والشياه، فاذا وقفوا رازوا الألية ، والظهر والبطن ، وكشفوا عن الاسنان!.. وسمسار كأنه شاة ، على ظهره فروة من جلد الغنم ، يلبسها من رقبته الى ركبتيه ، يطوف على البائعين ... فمن عزم على البيع أمسك

السمسارُ بيده ، يرفعها ويضعها ، وهو يتدرج بالسعر ، ثم يخفقها خفقاً ، بل يخلعها خلعاً ، ثم يقول بصوت عالٍ : صحَّ البيع !...

وجاء دورنا ، فوصل السمسار ، وأمسك بيد صاحبي ، وبدأ السوم بأناة وبطء ، ثم اسرع ، ثم اضطرب ، ثم جعلت الايدي ، ترتفع وتهبط حتى بلغ النهاية !..

ولما اراد صاحبي ان يحول البيع اليَّ ، علا الضجيج ، وانتفخت اوداج السمسار ، واحمرت عيناه ، وما انتهتْ المعركة إلا بجُعْلٍ للسمسار متعارف عليه !..

وبعد قليل ، صار حولي خمسون شاة ، لا أعرف عن حياتها شيئاً ، فوجمت اقول بيني وبين نفسي : هـذه الغنم من يسقيها وكيف يسقيها ؟.. ومن يطعمها وكيف يطعمها ؟ . وأين يؤويها،وكيف يؤويها ؟..

ويبدو أنّ صاحبي عرف ماذا وراء وجومي ، فقال : اذا شئته ذهبتَ بغنمك الى زحلة ، وبعتها هناك ، وأنا رفيقك في السفرة ، واذا شئت ابقيتها بضعة ايام ، ثم بعتها في هـذه السوق ، وأنا معك أدربك على كل ما يلزمها ...

فاخترت زحلة ، وبعناها بربح مبارك !..

ثم ألفت الصناعة ، وعرفتها ، وعرفت اهلها ، وأصبحت أعمل لها

في ربح يقوم بنفقتنا تارة ، وينقص عنها أخرى... ثم جعل الربح ينقص يوماً بعد يوم !.. فتمثل لي العوز بأبشع صوره .. وكان أخوف ما خفته ، ان اعجز عن أجرة الغرفة ، فأسمع الارملة العجوز ، تقول لي : أما علمت ان الغرقى لاينقذون غريقاً.. فلم أجد ماينقذني من مخاوفي إلا اللجوء الى مخيم اللاجئين.. قبل أن تنفد دراهمي..فاستشرت زوجي.. فوافقت !..

وأعطينا خيمة ، في مخيم اللاجئين ، نصبت بين الخيام !.. فاجتمعنا بمن نعرف وبمن لا نعرف !. رأيت معوزين كانوا موسرين !.. ومحتاجين كانوا عوناً على الاحتياج ... ورأينا ثكالى دلمعات العيون والقلوب .. وسمعنا قصصاً مثل قصتنا ، وقصصاً أقسى من قصتنا !.

ثم مرت الايام ، وزادت معرفتي بصناعتي الجديدة . . واخذت الارباح تزيد أسبوعاً بعد أسبوع ، حتى صار رأس المال مبلغاً يعتد به ، وحتى صار تجار السوق يعتمدون عليّ ، ويعرفونني معرفة صدق وصبر ... فشعرت ، وشعرت زوجي ، أننا نمشي نحو مستقبل مطمئن !..

فأقبل الشتاء رحيماً .. برد قليل ، وأمطار دافئة ، وعواصف ضعيفة !.. ومع ذلك كنا نزيد كل يوم في الأثاث من حصر وبسط، حساباً لقسوة الشتاء ..

ومر كانون الاول والثاني بسلام !.. فلما صرنا في شهر شباط، بدأت العواصف تعربد ، فكنا نتقيها ، بتركيز الاوتاد ، وحفر المجاري حول الخيام .. وكثيراً ما شغلنا هذا التدبير ، ساعات طويلة في الاصائل، قبل هبوط الظلام !..

وأفقنا ذات ليلة على عاصفة قوية ، انتزعت الخيام وطارت بها ، وطوت اللحف ، وقذفت بها .. فإذا نحن مع العاصفة ، لا خيمة ولا لحاف ، غير مطر وبرد ورذاذ من القر ، وغير ريح هوجاء ، ترمينا اذا وقفنا ، وتضغط علينا ألا ننهض اذا وقعنا .. يحوط بنا صراخ من أصحاب الخيام ، وهم يركضون وراء خيامهم ، يريدون أن يمسكوا بها ، وخيامهم مذعنة للعاصفة تذهب معها أينما ذهبت ، وتعصف معها حيثما عصفت ، والريح تصول وتجول ، كأنها لم تجد في الدنيا أحداً يستخذي لها ، في هوجها وعصفها وغدرها غير المخيم الضعيف !..

وبعد ست ساعات ، اصبح الصباح ، وهدأت العاصفة ، وطلعت الشمس ، وذاب السحاب .. فظهر المخيم من أوله الى آخره، ساحة خالية فارغة عارية ، الا من أهله وذويه .. وإلا من نيران أشعلت في كل مكان، وقف حولها من اهل الخيمة الضائعة ، وهم شيوخ ، ونساء، واطفال ..

يصطلون ، وينشفون لباسهم ، وفراشهم ، ولحافهم ،وحصرهم..وإلا من شباب التقوا بخيامهم على رؤوس الاشجار ، وبين الانهار، وفوق التلال.. فأمسكوا بها ، كما يمسك الشرطي بالمجرم الفار ، وحملوها مقيدة بيد من حديد !..

وذهبت أبحث عن خيمتنا ، فوجدتها محمولة على ظهر احد الشباب من الجيران .. فجئت بها .. ثم تركت زوجي تنشف ماابتل من الأثاث والثياب ، بعدما لفت ابنها بما يمنع عنه البرد .. وذهبت الى السوق ، واشتريت لحافين جديدين ، وحصيرتين ، وقمصاناً ، وجوارب.. واستأجرت لها سيارة حَمْلٍ ، وقصدت بها نحو المخيم..

وفي الطريق ، قبل ان أخرج من الاسواق، رأيت على البعد شيخاً ، معه صبية ، يحمل كلاهما طفلاً على صدره ... فجعلت عيناي تثبتهم وتنفيهم ، والسيارة مقبلة نحوهم ، وهم مقبلون نحوها ، حتى اذا صرت قريباً منهم ، عرفت ان الشيخ اخي الكبير، والصبية زوج ابنه ، والطفلان حفيداه .. فوقفتُ السيارة ، وقلت لهم : تعالوا !.. فالتفتوا مذهولين !.. فلما عرفوني ، عرفوا أنهم وصلوا الى الشاطىء !.. وردت اليهم الروح !...

وأسرعت فنزلت !.. وحملت الطفلين ، وأعنت أخي على الجلوس في السيارة ، وجلست كنته الى جانبه ، والطفلان عندهما !..

فلما اطمأن أخي في مقعده ، قال : يا عيسى !.. قلت : نعم !.. قال : هذا بائع التفاح الى جانبنا ... فاشتر لنا شيئاً منه قبل كل شيء !.. ففعلت !.. فوضع التفاح في حجر الطفل .. وقال : هـذا حفيدي الاكبر ! .. منيته الأماني بتفاح الشام ، ونحن في طريق الهجرة ، أغريه بالمشي ريثما استريح من حمله ، فلما وصلنا الى الشام ورأى التفاح . . وقف يبكي .. يطلبه . . ويحرن . . ولم يكن معي ما اشتري تفاحاً ..

ثم قال : أبشرك !.. إن ابنك حيٌ !.. لم يستشهد كما أشيع ، وإنما جرح ، وعولج ثم شفي .. قلت : وابنك والد هذين الطفلين؟.. قال : هو الذي بشرني بحياة ابنك ، وقد ذهب الى ابن عمه منذ ايام، ليقرر معه ما يفعلان ، واعتقد انهما يلحقان بنا في وقت قريب ! ..

وفي المخيم زغردت الأم ، إذ سمعت البشارة ، بصوت عال سمعه الجوار كلهم ، وأخذت ترقص رقصات متعثرة على غير وعي ، ثم جلست الى اخي ترهقه بالسؤال عن ابنها ، فيجيب اخي في صبر وعناء !..

وبينا نحن في ارتقاب وصول الشابين ، كانت حالي قد تحسنت،فاتفقنا

ان نخرج من المخيم الى دار !.. فذهبنا الى الارملة العجوز فوجدنا غرفتيها خاليتين ، فاستأجرناهما !..

وبعد أربعين يوماً ، عاد ابني وابن اخي ، فالتقينا بعد فراق مرير!.. وجلسنا جميعاً على السطح في دار الارملة العجوز على سفح جبل قاسيون، فقلت لزوجي :

ها نحن أولاء نجلس مجتمعين في المكان الذي جلسنا فيه من قبل مفترقين... فترقرقت عيناها بدموع الفرح ، وقالت : يا لها سعادة لو تدوم !..

* * *

كنت في اللد

كنا ثلاثة فتيان : أحدنا معمم ، والثاني معلم مثلي !.. وكنا نعمل مع لجنة دفاع اللد!.. نحضر اجتماعاتها ، ونحمل رسائلها الى لجنة الرملة والقرى المجاورة ... وقد نرافق الامداد من مكان الى مكان !..

وكانت اللد والرملة ، قويتين بالرجال والسلاح ، مطمئنتين لهذه القوى ... فلم يبرح أحد بيته من أطفال المدينتين ، ولا من نسائهما طوال المعارك .. بل كانتا موئل النساء والاطفال من النازحين اليهما !..

فقد اشترتا أنواع السلاح ، وبذلتا في سبيله مبالغ سخية ، أنفقها الغني من ذات يده ، والفقير من مجهوده وقوته ولباسه، وصنع اهل اللد سبع مصفحات صنعاً محلياً ، وظفروا من الانكليز بمدفع بعيد المدى ، في

غفلة من غفلات جنودهم ، واستطاعوا ان يحطموا هجمات اليهود المتتابعة تحطيماً قاهراً .

ولم تكن تلك الهجمات هينة !.. فقد كانت تجر وراءها فواجع وخراباً وثكلاً ويتماً !.. ولم تكن قصيرة الامد ، فقد دامت أكثر من ستة أشهر !..

ولكن كل هذا العناء ، وجميع ذلك الجهد ، ضاع بين يوم وليلة ، فذهب معه ، وطننا ورزقنا ، ومعظم شبابنا ، واصبحنا مهاجرين لاجئين ...

هذه النهاية القاصمة ، وقعت بين سمي وبصري ، في الهجوم الاخير الذي شنه العدو يوم السبت في ١١ تموز سنة ١٩٤٨ ، والناس صيام في شهر رمضان !..

في ظهر ذلك اليوم ، فوجئنا بطائرات تطير في سمائنا ، وتلقي علينا ، مناشير انتثرت بين البيوت والطرق والبساتين ! . فلحق بها الناس يلتقطونها .. وجمعنا نحن الثلاثة حزمة منها ، وذهبنا بها الى لجنة الدفاع ...

وقرئت المناشير ، فإذا هي تطلب الى المدينتين التسليم ، وتُعين مكان هذا التسليم .. فالرملة مأمورة أن تسلم في قرية (البريه) ، واللد مأمورة ان تسلم في قرية (حجرو) .. ويلي ذلك انذار بالخراب والدمار والفتك !...

كان تعيين مكان التسليم ، مزرياً بالفزع ، مزريا بالموت ، فشمرت لجنة الدفاع للدفاع ، ولحق بها القوم يعملون معها للجهاد،وعملنا نحن الثلاثة بما يطلبون .. فأعِدّتْ عدة الدفاع في سرعة وإحكام.

بعد ثلاث ساعات ، هوجمت اللد ، عصر النهار ، هجوماً تحميه المصفحات والطائرات !.. فاستمات العرب ، وزجوا في المعركة بمعظم الذخيرة ،وبجميع الشباب ، ودامت الحرب حتى فجر اليوم الثاني وانتهت بهزيمة اليهود ..

فرجعنا الى بيوتنا ، مطمئنين الى حاضرنا ومستقبلنا ... وطلعت الشمس على المدينة ، كما تطلع بعد ليلة ممطرة على ازهار ترنحت بين الاضواء ، واغصان رقصت على الاشجار ..

وذهب بعض المجاهدين يطلقون الرصاص جزافاً ، إمعاناً في الفرح، وهم أحوج مايكونون الى الذخيرة والرصاص !..

وبينما نحن في القيلولة عند الزوال ، وبينما بعضنا ما يزال يهزج بالافراح ، بوغتنا بهجوم أقوى من هجوم أمس ، تحميه أضعاف القوى التي حاربتنا أمس !..

فصحونا على العدو ، بين بيوتنا ، وفي دروبنا وأزقتنا ، وفوق سمائنا !.. فالطيارات ، والمصفحات ، والجنود المشاة كلهم يقذفوننا بالحمم من اليمين ومن الشمال ، ومن الامام ومن الوراء !.. فلم تمض ساعات حتى

أصبح المرء يتعثر بجثث القتلى في الطرق ، وحتى سالت الدماء على تراب لا يستسيغ شرب الدماء !..

واختلط النازحون بالاهلين ، ووقفت العقول والاذهان ، فضاع الولد بين يدي أمه ، والزوج عن زوجها .. بل ضعنا نحن الفتيان الثلاثة بعضنا عن بعض ..

ثم أخذ العدو يدخل الدور على اصحابها ، فيقتل من يقتل ،ويسلب من يسلب ، ثم يخلع الحلي من يد النساء ، ثم يحمل ماخف حمله، وغلا ثمنه ، ثم يذهب الى دار أخرى ، يعمل فيها ما عمل بالاولى ..

ودخلوا داراً كان فيها رب الدار ، وكان يحتفظ ببندقية ومشط رصاص .. فاستلقى على الارض في عتبة الغرفة ، وزوجه واطفاله وراءه ، وأخذ يتصيد المهاجمين واحداً بعد واحد ، فوقع بعضهم على الارض جثثاً هامدة ، وهرب بعضهم لا يلوون على شيء !.. ورأى مصيرهم رفاقهم ، فارتعدوا ، فأضحت الدور منيعة لا يجرؤ عدو على اقتحام بابها !..

ثم فوجيء العدو بفتيان من العرب ، يهجمون عليه هجمات انتحارية بعضهم يحمل مسدساً ، وآخرون يحملون الهراوات .. ينقضون على العدو لا يبالون : هلكوا !.. أم أهلكوا !..

فاستشهد واويلتاه ، معظم هؤلاء الفتيان ، بعدما فتكوا باليهود

أعنف الفتك ، وألقوا في قلوبهم الرعب ، واضطروهم أن يتزحزحوا عن الدور والازقة !..

وتدفقت على العدو القوّي في أعداد كثيرة ، وذخيرة ضخمة ، حتى اضحوا مهيمنين على المدينة ، متركزين في المواقع الحصينة، والبيوت العالية من الجهة الغربية والشرقية !..

في ذلك الوقت ، وجدت دربي خالية ، فاتجهت نحو الشمال أبحث عن رفاقي ...

فلما اجتمعت اليها ، جلسنا نتشاور في استعداء القوى العربية المجاورة ، عسى ان نصيب نصراً يزحزح العدو عن الصدور !.. فاتفقنا على ان نسافر الى قرية(بدرس)وهي لا تبعد عنا سوىسبعة كيلومترات، وعلى ان يبدل رفيقنا المعمم زِيَّهُ .. فالعمامة هدف للعدو واضح في الليل والنهار ، والجبة عثرات في المشي الطويل والقصير .. واتفقنا ايضاًعلى ان نتخلى عمن يضيع او يستشهد معنا في الطريق ... ثم فتحنا المصحف نستخير الله في مسيرنا ، ففتح على سورة يونس ، فتفاءلنا ، وعزمنا على تنفيذ ما قررنا ...

وبينا نحن نرقب الظلام ليتوارى سفرنا بالليل ، قال صاحبنا المعمم : لو كانت لنا قيادة مارست فن الحرب من قبل ، لعلمت أنهجمة العدو الأولى كانت فخاً للهجمة الثانية ... فاقتصدت بالذخيرة،

وحالت دون اللهو بافراح نصر يختفي وراءها قهر و كرب !..

فقال رفيقنا المعلم : في كلمتك كل السداد !.. ولكنها الآن لا تحمل غير الألم ، بعد ما فات وقتها وقامت القيامة !..

فصمت المعمم ولم يجب !.. ثم أخذ يبكي بكاءً مراً !..

فقلنا له : أيشغلك البكاء عما نحن عازمون عليه ؟..

قال : كيف لا أبكي !.. والأذان مازال مرفوعاً في ديارنا منـــذ أربعة عشر قرناً ، وها هو قد صمت ونحن لا نزال احياء !..

وبعد صمت طويل ، استلمنا الطريق الى (بدرس) ؛ وكان الليل قد أرخى سدوله !.. فأخذنا نمشي واحداً وراء الآخر ، بين كل واحد وبين رفيقه اكثر من عشرين متراً !..

كانت البساتين غطاء لنا ، فاجتزناها مشياً على الاقدام ، أما حقول الذرة والسمسم ، فهي كاشفة ، لم يطل نبتها بعـــد ، لذلك اجتزناها حبواً على الصدور ، والبطون ، ولذلك طالت طريقنا على قصرها ..

وقبيل منتصف الليل ، تفقدنا بعضنا ، وكنا بين البساتين ، فلم نعثر على صاحبنا الشيخ !..

فجلسنا قليلاً ننظر الى القرب والبعد ، فلم يقع نظرنا عليه !.. وماذا يستطيع السابح بين امواج الليل والهول ، غير ان يحرك رأسه ،ويلتفت الى ما حوله ، ويمد باعه ، ثم يمضي في سبيله !..

لقد تركناه !.. فاصبحنا اثنين بعد ان كنا ثلاثة ؛ فصعب علينـــا ضياعه .. وصرنا كصاحب بيت تهدمت غرفة من غرفه الثلاث ... ولم يكن ،من العسير علينا،ان نجتمع طويلا نحن الاثنين ، فيواسيني وأواسيه في وحشة الليل ووجومه ...

وبينما كنا نمشي بين البساتين ، صـــاح بنا صائح من وراء الظلام ، يقول : قفوا ولا تتحركوا .. فكان لسانه العربي شعاعاً مضيئاً في ظلام الليل ... فقلنا له : صديق !.. فقـال : تقـدموا واحـــداً وراء واحد !..

ولما اجتمعنا اليه ، اطمأن الينا ، واطمأننـا اليه !.. فهو ضـابط احتياط ، وصل الى رتبة ملازم في الحرب الاولى ، متقدم في السن !.. واليوم يرأس متطوعين من العرب ، أتوا من القرى المجاورة !..

فطلبنا اليه ان ينجد اللد والرملة ، بعد ما حدثناه عن بعض الهـول الذي وقعت فيه اللد !

فقال : قوّتي التي ترون ، لا تـكاد تصمد على حفظ هذا المـكان ، وذخيرتي من السلاح وهم!.. لـكنني أنتظر قوة من العرب آتية للانقاذ .. فمتى وصلَتْ ، نوجه وجهنا ، نحو اللد والرملة .. وعندي ان تظلوا معي ، نعيش معاً ، ونحارب معاً ... فاذا وصلت القوة التي وعدت بها ، نخلـّص اللد والرملة معاً .. أما إذا كان لا بـد من سفركم ، فإني احـذركم من هذه الطريق ، فأنا اخشى ان تـكون قد قطعت بقوى العدو !..

فقلنا : لا بد من استعداء العرب على عجل ، فقد تركنا البلد، والنار تأكلها من أطرافها .. ونخشى ، إذا تأخرنا ، ان يفوت أوان الخلاص .. ثم ودعناه ، وسرنا في سبيلنا على حذر ورهب ..

وصلنا إلى ضاحية (بدرس) عند مطلع الفجر ، فأحسسنا بالأمن يحل في قلوبنا محل الروع !.. فشجر الزيتون أضحى ساتراً لنا ، والقرية التي رجونا منها العون على عدونا أضحت أمامنا ... وقد آن لنا ان نجلس تحت شجرة فنستريح ...

في هذه الاستراحة ، اخذنا نسمع صوتاً يتحدث بالقرب منا بين الاشجار ... فأصغينا اليه ، فاذا هو يقول : هل وصلتم ؟.. فحرنا في امر هذا الصوت وفي امرنا ، ورجعت الينا اوهام الطفولة ، فخشينا ان نكون قد خلصنا من اعداء الإنس ، لنقع بين يدي اعداء الجن ، ونهضنا نريد أن نفر من المكان ، وآذاننا على الصوت لا تبرحه ولا يبرحها ... فاذا السؤال يتكرر ، وإذا هو ، صوت صاحبنا الضائع ... فدنونا منه ، فرأيناه ، هو بعينه قد اضطجع تحت الشجرة ... فقلنا له : نعم !.. وصلنا .. فعاد يكرر السؤال ... فأمعنا فيه ، فاذا هو يغط في نوم عميق لا يعي ما يقول ..

فأيقظناه بعناء ، فنهض ، وعانقنا ، وقال : الآن كنت معكم !.. قلنا : كنت في حلم ..

فقال ، وقد ظهر عليه الفرح : نعم كنت نائماً !.. بل كنت احلم بوصولكم .. فقد ضعت عنكم ، وما ادري كيف ضعت .. ولما اصبحت وحدي ، شعرت ان كل قوى اليهود تتربص بي ، فمشيت ما أدري اين اذهب..حتى بلغت هذا المكان ... وفي هذا اللقاء بشارة توحي بالوصول الى الاماني !..

وطلعت الشمس على (بدرس) ، ونحن في اطرافها مشرفون عليها.. فلم يقع بصرنا فيها على رجل ، او امرأة ، او طفل !.. فقلنا : ان القوم ما يزالون نائمين ، فهم لا شك قد سهروا الليلة الى الصباح على الدفاع ، وتوقع الهجمات ..

فلما صرنا عند أول بيت من بيوتها ، دخلنا الدار ، وكان الباب مفتوحاً !.. فرأينا العصافير تدخل من ابواب الغرف وتطير من الشبابيك ... والفرش عليها اللحف مبعثرة غير مرتبة .. وجرار المؤن المملوءة بالبرغل والسمن والزيتون مصفوفة في مكانها ، وشعاع الشمس ممدود في عتبات الغرف ونوافذها ، لا يستدفىء بها سوى أصص من الريحان الذابل .. فالدار خلاء ، ليس فيها ديار .. والقوم قد نزحوا ... وبينما كنا نمشي في الازقة ، بين البيوت الخالية ، رأينا ضبعاً تمزق عجلا صغيراً ما يزال حياً يرفس برجليه ويديه ، فلما رأتنا الضبع هربت ، ثم عادت الى فريستها عندما بعدنا عنها ..

وبعد قليل ، رأينا كلباً يقفز من اقصى القرية نحونا !.. فلما دنا منا

هدأ ، ومشى الى جانبنا .. عيناه علينا ، ورأسه موروب نحونا ، وهو يعوي عواء حزيناً خافتاً ... فقال المعلم : هذا خائف جائع جاء يستجير بنا !.. فقلت : بل هو ضائع يحن الى ان يعود الى اصحابه برفقتنا!..فقال الشيخ : عجلوا في الخروج من هـــذه القرية لنستلم الطريق الى قرية (نعلين) عسى ان نجد النجدة المطلوبة ، فالوقت ضيق ، والموقف خطير ..

ثم مشى ومشينا معه في اقصر طريق الى الـبرية ، واخذنا نسرع الخطى ، حتى خرجنا من بين البيوت ، ووصلنا الى بئر القرية ... فاذا على البئر فتى عربي ، يملأ جرة ، وهو شاحب الوجه حزين ... فقال : هذا أبي في البيت يعاني سكرات الموت منذ يومين ... وقد رحل أهلي من القرية أمس ، وحاولوا ان يأخذوه معهم ، فأبى وقال لا أموت إلا هنا في هذه التربة .. فلما أصر عزمت ان ابقى معه .. وها هو مدنف ، تحشرج انفاسه بين فمه وحلقه !.. فأعينوني ... عسى ألا يموت وهو عطشان !..

فتعاونا على الماء ، وكان البيت قريبـاً ، وسقينا المدنف قطرات ، صببناها على انفه وفمه ؛ فجعلت القطرات تتعثر بين شفتيه واسنانه ، ثم فتح عينيه ، وحمحم بما لا نفهم ، ثم صحا آخر صحوة ، وقال :لاتخافوا يا بني !.. إنكم عائدون !.. ولكن لا تنسوا موضع قبري ... ثم اسلم الروح الى بارئها ..

وفي قرية بعلين ، وجدنا ألوفاً من غير اهلها قد تجمعوا فيها حتى ضاقت بهم الدروب ، فآووا الى العراء في الضاحية ، فجعلنا نبحث بين هذه الجموع عن لجنة الدفاع !.. ومضت ساعتان ونحن نلوب ، حتى وجدنا من يدلنا على بيت واحد منهم !.. فتحدثنا اليه عن اللد ، ونحن وقوف ، وعن الهجومين الاول والثاني ..

فبهت الرجل ، وقاطعنا قبل ان نتم ، فقال : ان نعلين تعد اللد والرملة حصناً لها ، وتعتمد على معونتهما في الضراء ، ولقد كنا على وشك ان نرسل اليكم ، نطلب ذخيرة للسلاح ، لان ذخيرتنا قد نفدت ، ولم يبق لبندقياتنا ، ولا لرشاشاتنا رصاص ، وانتم ترون ان تدبير النازحين الينا ، وهم يزيدون على اضعاف قريتنا ، يشغلنا حتى عن الاستعداد للهجوم المتوقع علينا .. إن كل تنور في القرية يخبز الخبز من الصباح الى المساء ، فالنازحون هربوا من الموت ، وليس معهم من الزاد إلا القليل !..

ثم فكر قليلاً وقال : اللجنة تنتظرني ، وارجو أن نلتقي هنا صباح الغد ، لنفكر معاً فيما ينبغي ان نعمل ، وسأفاجىء اللجنة بأخباركم ، عسى ان يجدوا مخرجاً لهذا الكرب .. ثم ودعنا وذهب...

لقد انقضى اربع وعشرون ساعة على مأساة اللد ، وكل دقيقة تمر ، تزيد في تمكن العدو منها ، وتضيع علينا فرص الخلاص ، وليس في طاقتنا ان نعمل غير الذي عملنا . .

بهذا تحدثنا نحن الثلاثة ، بعدما فارقنا عضو لجنة الدفاع .. ثم قلبنا الامر من جميع وجوهه ، فلم نجد مخرجاً سوى ان ننتظر ما يفعل الغد.. وبيننا وبين الغد ساعات من النهار طويلة ، وليلة ليلاء متخومة بالمفاجآت الحاسمة ...

كنا متعبين ، وكان رأسنا مثقلاً بالنعاس ، فذهبنا الى الضاحية ، واضطجعنا تحت شجرة ، واستغرقنا في نوم ، لم نفق منه ، إلا على ضوضاء صاخبة تموج على آذاننا عند مطلع الشمس ..

فنهضنا ننظر الى ما حولنا ، فإذا موكب طويل عريض ، مقبل نحونا بين ستار من الغبار ..

لقد رأينا على البعد ، اطفالاً ونساء وشيوخاً ، فعلمنا انهم نازحون جدد !.. فأسرعنا نحوهم !. فاذا نحن بين اهل البلد كلها .. إنهم جموع !.. بعضهم ماش ، وبعضهم يسوق حمراً ركب عليها اطفال وعجز .. وأناس جلسوا يستريحون من الإعياء .. واطفال لووا برؤوسهم على اكتافهم ، فصغيرهم جلس على كتف جده ، وكبيرهم بين يديه ..

ورأيت جارنا قد اصطحب من بقي من اسرته ، فهو يسوق مركبة تجرها الخيل !.. فسألته عن اهلي ! .. فأشار انهم بين هذه الجموع ....

ومشى الركب ، وعينـــاي تلوبان على اهلي ، فلا أرى منهم احداً ...

ووقفت امرأة تصيح الى جانبي .. فدنوت منها ، وكان الى جانبها حدث في الرابعة عشرة من العمر .. فإذا هي في المخاض، واذا الحدث ابنها حائر ماذا يعمل... فرميت بالحقيبة التي يحمل على الارض !.. وأخرجت منها ملحفة ، مددتها على التراب ، وأجلست عليها أمه ، وابتعدت أدبر قُمُطاً للوليد ، وأتوارى عن الحامل حتى تضع حملهـا ..

فلما وضعت،وسمعت بكاء الوليد ، ورأيت ابنها يعاونها على ما تطلب.. ذهبت !.. وكنت في قلق على أهلي .. وأخذت انتقـــل بين الجموع أسأل عنهم ..

وأخيراً وجدتهم .. ليس فيهم رجل غير عمي .. فجلسنـا تحت الشجرة ، لا نتحدث ، ولا نهمس !.. وكانت الجموع من حولنا تبحث عن مكان تستريح فيه ، وقد أطل من عيونهم حزن كليل صامت ، جاف الدمع ، حائر النظر ، خابي الشعاع ..

هنالك رأيت فلسطين ، شيوخها ونساءها ، واطفالها ، وبقايا فتيانها ، اجتمعت حولي ، وقد تركت ، مرغمة ، بلادهـــا وملكها وارضها وجدودها المدفونين فيها !. رأيتها تهجر مرغمة وطنها !.

ورآني عمي واجماً ، فقال : مالك يا بن اخي ؟..

قلت : أخرستني النكبات !..

قال : لا يشغلنك ما فات ، عن العمل لهؤلاء الاحياء .. فقد كنا في حريق لا يرجو فيه السـلامة احد ، فكل الذين ترى هم مولودون جدد ..

ثم قال : ومتى خرجت من اللد ؟.

قلت : مساء يوم الأحد !. جئت مع رفاقي ، نستنصر القوم من بدرس ونعلين !..

قال : وماذا ينفع الترياق اذا بلغت الروح التراق ؟. ثم مضى يقول : لقد فرضوا علينا منع التجول عشية خرجت من اللد ، ليلة الاثنين .. فدخل داره كل من كان بالقرب من داره !.. أما الذين كانوا بعيدين ، وا كثرهم من النازحين ، فقد لجأوا الى جامع (دهمش) !.. فامتـلأ بهم الجامع ، حرمه وفناؤه ونوافذه ومنبره ومئذنته !..

وفي منتصف الليل ، وصلت قواهم الى الجامع !.. وأخذوا يلقون عليه بالقنـابل ، وما هي الا ساعات حتى كان الجامع قبراً لجميـع الذين لجأوا اليه !..

وهنا أشار عمي الى كهل يجلس وحده على قرب منا .. وقال: هذا الكهل من الذين نجوا من المجزرة بأعجوبة .. وهو الذي حـدثني حديث جامع دهمش !. قال لي : خرجت من بين الاموات قبيل الفجر.. وكان

القمر يطل علينا ، فيظهر شعاعه الفضيُّ الابيض أحمر قانياً بين أركان الجامع .. لقد تركت الالوف صرعى .. بل هربت وأنا أرى الأشلاء منثورة حولي في كل مكان .. رأيت أيديا على الارض ، وضلوعاً على السقيفة ، وأقداماً على كوى المئذنة ...

وصمت عمي قليلاً ، ثم قال : وعلمت أيضاً أنهم فعلوا بالرملة مثلما فعلوا باللد .. ثم جمعوا النـاس في البلدين ، وقبضوا على الشبـاب ، وأرسلوهم الى المعتقلات .. بعدما أنذروا الباقين بالخروج من المدينتين خلال ساعات ، وعينوا لـكل بلد طريقاً خاصة به .. وكانت طريق اللد الى نعلين ! ..

وفي طريقنا هذه ، دفنا أناساً من هذا الركب ، بين نواح أهلهم وذويهم ، وتركناهم حيث ماتوا .. فـكم من أم دفنت ابنها ، وكم من رضيـع فصلنـــاه عن ثدي أمه الميتة في العراء ... فاحتمله جده على كتفه !...

وإني لأستمع الى عمي ، ارتفعت يدي على غير اختيار مني وأشرت: أن قد كفى ، يا عماه !..

وكان صاحباي ، قد جلســا الينا منذ قليل ، وسمعـا بعض حديث عمي ، وظهر في وجوههما ، أنهما سمعا مثل حديثه من النازحين ...

فقالا لي : ما تدبيرك في مثل هـذا الموقف ؟.

قلت : وقد مر ببالي مالقينا في بدرس : وأنتم ما تدبيركما ؟.

قالا : كنا عزمنا على أن نحض القادرين على القتال من هـذه الجموع ، أن يبقوا هنا ، ريثما نذهب الى العرب المجاورين نأتيهم بالسلاح ، فوجدناهم عازمين على الرحيل ..

فقاطعهما عمي ، وقال : أين تذهبون ، والنـار تشتعل في الارجاء التي تقصدون اليها .. فمن احترق بيته يعمل الى إطفائه بمعونة جاره ، فاذا عجز الجار ، طلب فرقة الاطفاء .. أما نحن وجارنا معنا ، فأصبحنا لا نملك ما يطفيء ، ولا نملك ما يشعـل ، بعد ما نفدت ذخائرنا الضعيفة في معارك طويلة ، ووقفنا بين لهيب يأكل الأخضر واليابس.. وأما الدولة المنتدبة صـاحبة فرقة الاطفاء ، فما زالت منـذ ربع قرن تعطي عدونا بدلاً من الفرقة فرقتين ، وبدلاً من علبـة الكبريت علبتين ، وها هي حتى هذه الساعة ، مختبئة وراء العدو تمده بما يتمنى وبما يريد . . والمضحك المبكي أن الحامية الاردنية ، انسحبت من بيننا أحوج ما نكون اليها ..

قلنا : وما التدبير يا عماه ؟.

قال : لا تدبير اليوم غير أن تلحقوا بهؤلاء النازحين ، لتعاونوا المريض والجريح والمجهود ، حتى يبلغوا مأمنهم .. ثم نعمل من جديد ،

مع الامة العربية ، عملاً صادقاً ، قد يطول أمده ، ولكنه يوصلنا الى ما وصلنا اليه في عين جالود ..

إن عمي أبعد منا نظراً !.. إن كلامه ليس وراءه كلام !.. فوافقنا ولحقنا النازحين في الطريق الى (بيرزيت) !

كان الركب طويلاً يملأ السهل .. كان فيهم كل من سلم بروحه من قرية (بدرس) .. وكل من سلم بروحه من (اللد) ومن كان فيها من النازحين !.. كان فيهم كل القرى المجاورة لنعلين !..

إنهم عشرات الالوف !. جناح من فلسطين كبير .. أيتام وثكالى وعاجزون !.. الكرب يطل من جباههم ، والهمود يثقل كاهلهم وأيديهم وأرجلهم ! .. فلو رأيتهم ، قلت : إنهم يحملون نعشاً سجيت فيه أجيال من العرب ، عاشت وبنت في فلسطين آلاف السنين !..

كانوا يمشون في ظلام والشمس طالعة ، كأنهم كانوا يمشون في منجم فحم لا ضوء فيه ولا سراج.. بل كانوا في كسوف يتبعه خسوف.. كانوا ينحدرون بين غياهب الأفول !..

لكن الطريق ، والقدر ، والحق ، وعبقرية هذه الأمة ، كانت تتناجى أنهم مقبلون على الشروق !.. مقبلون على الشروق المتأني الصبور !.

هنالك ذكرت غاندي ، وهو يقول : لئن كان هناك إله في السماء حقاً ، لتسألن أمامه انكلترا « وأمريكا والصهيونية » عما اقترفت في حق الإنسانية بأعمالها ..

ولما أشرفنا على (بيرزيت) ، وقف أهلها على التلال ينظرون الينا من بعيد في حزن وألم !.. ثم أقبلوا علينا ، معهم مركباتهم وخيولهم وحميرهم .. وحملوا عليها العاجز والضعيف ، ثم أعدوا لنا زاداً زودونا به ، وبعد استراحة ورقاد رحل عنهم من رحل ، وبقي عندهم من بقي ...

وفي أريحا ، وعمان ، لقينا من شعبنا العربي ، ما يلقى المرء من أمه وأبيه ! .. كانت مصيبتنا مصيبتهم ، وآلامنا آلامهم ، رأينا ذلك في دموع العيون ، ونبرات الاصوات ، وفي العمل على تخفيف الآلام ..

وفي دمشق ، أحاطت بنا جمعية تحرير فلسطين ، وكان معهم الاستاذ (ك . ب) فنقلنا بالسيارات ، الى عمارة دار المعلمين وكانت واسعة ، وكان الدهان قد انتهى فيها قبل أسبوع !.

وها قد مرت الايام والسنون ، وما تزال صور هذه النكبة أمام عيني ، تسكن عندي في بيتي ، وتعيش معي في عملي .. وقد أنساها يوماً أو أسبوعاً ، ثم أذكرها ! .. فاذا صورها الأليمة تملأ جوانب نفسي ، وتضطرب بين عقلي وقلبي ، فما أبصر غيرها ، ولا أحس

إلا بها .. وقد أتمنى لو يتاح لي ، ما أتيح لكل مخلوق في العالم !.
أتمنى أن أمر مروراً ببلدي ، فأطوف بقبور آبائي ولداتي ، فأعيش بينهم أناجي مضاجعهم تحت الثرى ، وأصغي الى مصارعهم في البلى !..
فتغيب أمنيتي هذه ، بين أماني الأخرى الضائعة ، وأعلم أن بيني وبين نسمة من نسمات بلادي ذئاباً تحفزت للمجازر ، لا تمحو نابها وظفرها، كما قال عمي ، الا معركة كبرى تحت راية للعرب واحدة !..

* * *

دير ياسين

(ك — م)

علمت أن بين الفلسطينيين المقيمين في دمشق ، فتى نجا من مذبحة دير ياسين ، يدعى (ن ـ و) ... فبحثت عنه طويلاً ، حتى لقيته واجتمعت به ..

فقلت له : إنك من دير ياسين .

قال : نعم

قلت : شاهدت المجزرة ، ونجوت منها ..

قال : الذين شاهدوا المجزرة ، كلهم ذبحوا !.. ولم ينج منها إلا واحد لا ثاني له !.. هو عمي ... وكان شيخاً كبيراً ..ظل في المستشفى على أثرها أكثر من شهرين حتى شفي ..

وكنت خلال مرضه ، أذهب اليه ، وكثيراً ما بتُّ عنده ...

وكان يعوده رجال من ديرياسين وبعض نسائها ؛ يسألونه عن ذويهم فيجيبهم بايجاز تارة ، ويصمت فلا يجيب تارة أخرى ... فاذا خرجوا من عنـــده ، تحدث عن كارثتهم بهدوء ، إذا كانوا ممن وعى كارثتهم ...

قلت : وهل تذكر كل الذي سمعت منه .

قال : كيف أنسى حديث يوم ، علمت في مسائه أنني ثكلت كل من ودعتهم في صباحه .. كان لي أم وأب وزوجـة في الصباح .. فأمسيت وحيداً لا أم ولا أب ولا زوجة ولا أولاد ولا أهل .. كنت غصنـــاً مزهراً في بستان ، فصرت عصية تتقاذفها الرياح في صحراء الحياة..

وصمت طويلا ، ثم اعتصر بكأس ماء ، وقال :

إسمع يا أخي !.. ديرياسين ضاحية من ضواحي القدس .. ونحن اهلها حجارون بناؤون ... فشبابها يبيتون سواد الليل في بيوتهم ، ويعملون بياض النهار في القدس .. كذلك عشنا طوال العمر ..

ولمـــا اضطربت البلاد بعد اعلان التقسيم ، حفرنا خنادق حول القرية ، وتسلحنا بسلاح كاف ، وجعل شبابنا يبيتون في هذه الخنادق يحرسون القرية الى الفجر ، ثم يذهبون قبل مطلع الشمس للعمل في القدس ، ويبقى في القرية الشيوخ والنساء والأطفال ..

ومرت بضعة أشهر ، لم يتحرش بنا أحد خلالها ، ولم نتحرش نحن

بأحد .. حتى تركز في روعنا ، أننا في مأمن من العدو ، مادمنا على هذه البقعة ..

وبينما كنت عائداً من القدس الى ديرياسين مساء يوم ٩ نيسان ١٩٤٨، ومعي بعض شبابنا العائدين كالعادة... استوقفنا رجل من قرية عين كارم ثم جعل يحاول الكلام ، فيرتعد ، ولا يتكلم ... فقلنا له بصوت واحد : روّعتنا يا رجل !.. قل ما بدالك ، ولا تخش شيئاً !.. قال : هاجر أهل عين كارم كلهم ... وسكت ... فألححنا عليه أن يتمم ... فتردد ، ثم قال : لقد سمعنا ظهر اليوم أن اليهود ، ذبحوا أهل ديرياسين عند مطلع الشمس ... ولو لم نهجر قريتنا ، لذبحنا مثلهم ذبح النعاج ... ثم أخذ يتحدث بما سمع عن المجزرة ، ونحن أمامه مشدوهون ذاهلون ... وما زال يتحدث ، وما زلنا نستمع ... حتى أصبحنا لا نفهم ما يقول ..

في شوارع القدس بتنا ليلتنا !.. نذهب ونجيء .. في صمت لا يقطعه إلا سؤال يتردد بيننا آناً بعد آن ... ذبحوا جميعاً؟... قتلوا جميعاً ؟.. ابني أمي زوجي أبي أختي .. ألم يبق منهم أحد ؟.. وكم خرجنا من القدس تلك الليلة ، ومشينا في الطريق الى بلدنا ، ثم عدنا ... ثم رجعنا نمشي في طريقها ... ثم عدنا ...

وبعد يومين ، لم أتم خلالهما ، علمت أن عمي نجا من المجزرة ،

وانه في القدس ، في المستشفى ... فذهبت اليه .. فرأيته على السرير ، غائب الوعي .. يتنفس بعسر ، ويرفع يديه ويهوي بهما على الوسادة ، كأنه يدفع شراً يتوقعه .. وقد نحل جسمه ، وشحب لونه ، ولاح الموت بين عينيه ... كان لا يزال يعيش بين المجزرة ... فأساريره ، وجفناه المغمضتان ، وشفتاه المطبقتان كانت كلها تروي القصة من أولها الى آخرها ... وجاء الطبيب ، فسألته عنه ، فقال : إنه يصحو قليلا، ويغيب طويلا ... فإذا صحا لا يتكلم ، ولا يرد على سؤال ... وإذا غاب ، تكلم كلام المحموم ، وهوى بيديه على الهواء ، ثم رماهما على السرير كما ترى ..

فقلت : وهل كان كذلك عندما وصل الى المستشفى ؟

قال : وصل الى هنا ، يحمله فتيان من شباب القدس ، وكان غائباً ، لا يعي ما نقول ، ولا نعي ما يجمجم ..

وإني لأتحادث مع الطبيب ، فتح عمي عينيه ، ونظر إليَّ نظرة طويلة ، ثم غاب ... ثم صحا ، ونظر اليَّ نظرة أخرى ممعنة ... وقال : هذا أنت يا مروان ... أحمد الله على سلامتك ... ثم غاب ..

فقال الطبيب : اطمئن !.. إن عمك قد تزحزح عن الخطر ... ولما ذهب الطبيب ، جئت بكأس ماء ، وصببت بعضها على فمه ، فصحا ... ثم غفا .. ثم صحا ، وجعل يشير إليَّ : أعطني الكأس كلها ... فشربها ..

فخرجت الى الطبيب أبشره ... فجاء بعصير البرتقال ، وأوصاني أن أسقيه منه ما دام قادراً على شربه !..

فما زلت أسقيه البرتقال ، حتى أخذ وعيه يتفتح شيئاً فشيئاً ... فما ذهب الليل ، وجاء الصبح حتى كان صاحياً يتحدث فتفهم حديثه ، وتحدثه فيفهم حديثك .. وأتيناه بكوب من الحساء ، فاحتسى أكثره ثم نزل عن السرير ، وجلس على الكرسي ، في قليل من العنـاء .. ثم أخذ يبتسم فرحاً برجوع الصحة اليه ، بعد ما يئس منها ..

وفي الظهيرة ، جاء الى المستشفى ، ثلاثة من شباب ديرياسين من رفاقي .. فلما رأيتهم ، وكنت أمام الباب ، أسرعت اليهم أرجوهم أن يكتموا الحزن ، ويتجملوا بالصبر ... وأن يوجزوا اذا سألوا ، وأن يجتزئوا بما يسمعون اذا أجاب .. فلما رآهم عمي ، فرح بهم ، وأشرق وجهه وتهلل ، وهنأهم على نجاتهم من المجزرة ..

فسأله أحدهم : أصحيح أتت المجزرة على أهلنا جميعاً ؟..

قال : نعم

فسأله ؛ لم يبق منهم أحد ؟..

قال : نعم ..

فسأله : وكيف نجوت أنت ؟..

فتغير وجه عمي .. ثم أغمض عينيه وصمت .. وانتظروا طويلا .. ثم انصرفوا ، وعمي صامت لا يتكلم ..

فلمـــــا غابوا ؛ التفت اليَّ عمي وقال : لعلك يابن أخي رأيتني جاف الحديث ، جاف الصمت أمام ضيوف ثاكلين .. قلت : انهم يعرفون عذرك !.. قال : كلا !.. ان أحداً لا يعرف عذري ، إنني مازلت أعيش من المجزرة في جمر من النار تحرق جميع جوانب جسمي .. وقد كست الايام هذه الجمرات رماداً يخنق لهيبها .. فكل حديث عنها ينتزع الرماد ويطلق العنان للهيب .. لقد خدرت آلامي ، فاذا سئلت عنها ، طار المخدر وانطلقت الجروح تسرح وتمرح بين عقلي وقلبي وجسمي ..

وبعد عشرة أيام ازداد عمي قوة ووعياً ... فجعل يسليني بمايحضره من نكات وطرف .. وكان خفيف الروح ذكياً .. وجعلت أرى النضارة تدب على جبينه ، وفمه وخديه،وعينيه .. فأفرح له كأنني أرى الحياة ترجع الى أهلي جميعاً فيبعثون من جديد ..

وفاجأته يوماً بنكتة طريفة ، فضحك لها ضحكاً ، ازداد معها نشاطه واستراح ، ثم نام نوماً هنيئاً دام ساعتين ... فلما أفاق قال : اليوم بدأت أنام نوم صحة وهدوء !.. والآن أصبحت أستطيع أن أقص عليك ، كيف أنقذتني العناية الإلهية من هذه المجزرة ... ثم فكر طويلا وقال :

فوجئنا عند طلوع الشمس ، بجنود من اليهود يملؤون القرية ، وكان ذلك بعد نصف ساعة من ذهابكم أيها الشباب الى القدس !.. كانت تتقدم الجنود الدبابات وحاملو القنابل .. ولم تمض دقائق ، حتى

كان أمام كل بيت من البيوت نفر من الجنود ، حرابهم مشهرة ، يطلبون أن يخلوا البيت ويذهبوا الي ساحـــة القرية ... فمن توانى أخرجوه والبندقية على ظهره .. ثم اخذوا يطلقون النار ارهاباً ... بل قتلوا من جيراننا اثنين ..

وعند الظهر كنا جميعاً في الساحة ..

هنالك أمرونا ان نركع ، في صفوف بعضهـا وراء بعض ، على أن يكون وجهنا للبرية وظهرنا للجنود .. وماذا يستطيع ان يعمل النساء ، والأطفال ، والشيوخ العزل ... امام الحديد والنار ..؟

فاعترض على هذا الأمر ، فتى هو الوحيد الذي تخلف عن الذهاب ذلك اليوم الى القدس ، لارتفاع في حرارته .. وكان يحمل بين يديه طفلاً لا يزيد عمره على ثلاث سنين .. فركله احد الجنود (ببسطاره).. وانثنى عليه آخر يمزقه بالحربة .. أما الطفل وقد وقع على الأرض ، فلم يحتمل سوى دوسة على رأسه من رِجْل احد الجنود فاذا رأســـه كالعجين .. فلما رأى الاطفال الدماء تتدفق من الطفل وابيه صرخوا صرخه واحدة .. فمن كان على صدر أمه وارى رأسه بين ثدييها ، ومن كان الى جانبها وارى وجهه بذيل ثوبها .. واصفرت الوجوه خوفـــاً وهلعاً ، وارتمت الأذقان على الرقاب .. واذعنوا جميعاً لما يطلبه العدو.. وركعت مع الراكعين ..

وما هي الا دقائق،حتى هطل علينا الرصاص من الرشاشات هطول البرد في اليوم العاصف .. فمن اقصده الرصاص وقع على الارض لا حراك به ، ومن أخطأه ركض يهرب بجراحه والرصاص لاحق به ..

وارتمى عليّ الذين كانوا الى يميني ، وجرت الدماء على اثوابي .. فاضطجعت بينهم ، وانا على يقين من ان هذا الدم يجري من جروحي، وانني ميت لا محالة عما قريب ..

وقفز من فوقنـــا الجنود ، يلحقون بالراكضين الذين لم تقتلهم الجراح .. واخذوا كلما امسكوا بواحد ،يمزقونه بالسكاكين والحراب.. ثم يمثلون به ، يقطعون ايديه وانفه واذنيه ، ثم يذبحونه ، ويفصلون راسه عن جسمه ..

وتحرك ثلاثة اطفال : صبي وابنتان ، كانوا تحت جدهم المشرف على الموت ،المتقوس على حفدته .. فوكزوهم بالحراب..فتدحرج الاطفال يميناً ويساراً ، فأهووا عليهم بالسكاكين ..

وجرى حدث في الثامنة من العمر ، ودمه ينزف ، يهرب من الموت . . فلحقوا به يقولون : لاتخف فالسكين حادة .. ثم أهووا على رقبته بالحربة .. فتدحرج الرأس على الارض .. ومشى الجسم خطوات بلا رأس ثم وقع ..

لقد صار ذلك كله ، عند سمعي وبصري ، ساعة كنت على يقين من

أنني مدنف ، وانني اعيش دقائق لا تطول إلا ريثما ينضب دمي الجاري من جسمي ..

وهنا اغرورقت عينا عمي بالدمع ، وبدا عليه الإعياء ، ورأيت الضر يلوح على أساريره .. ثم صمت كأنه يحاول ان يساعد بينه وبين الصور الأليمة التي ما زالت تتجهم له منذ اخذ في هذا الحديث.. ثم قال: دعني يابن أخي فما استطيع ان أتم الحديث .. ثم استلقى على سريره .. واستغرق في سبات كأنه الإغماء ..

وبعد يومين ، رأيته في حال مستريحة مطمئنة .. فقلت له : وكيف انتهت المجزرة يا عماه ؟.

قال : لقد بَلَغَتْ نهايتها بعد العصر من ذلك اليوم ، بعدما غطيت الارض بشهداء لا صوت لهم ولا حس ..

حينئذ اخذ نفر من الحرس يذهبون بين الجثث ويجيئون، يتفقدون من به رمق ليجهزوا عليه ..

فلما اطمأنوا الي ان الحياة انتزعت من الجميع ، رجعوا نحو البيوت المتصلة بتلك الساحة ، وقد اعياهم الجهد ، فاستندوا الى الجدران ، ينظرون الى ضحاياهم نظرة الضباع الى ضحاياها...

في هذه الساعة مددت يدي إلى جسمي ، اتلمس مواضع الجروح ، فلم اعثر في جسمي على جرح ، وكبست على مواضع الوجع ، فوجدتها لا تزيد على وجع من رضوض بصدمات اصابتني خلال المذبحة .. ثم

اعدت اللمس والكبس ، فتأكد لي انني سليم ، وان الدماء التي جفت على وجهي وثيابي ما هي الا دماء الذين حولي ..

فامتلأ قلبي فرحاً ورعباً ، بعدما كنت خالصاً من الفرح والرعب.. كنت مستسلماً لموت قريب .. فكان الخوف والامل وكل نزعة من نوازع النفس مخدرة .. فلما عرفت انني سـالم استيقظ الخوف وحب الحياة والأمل والفرح وكل النوازع النفسية ..

وبينما انا كذلك ، رأيت الجنود معهم العربات ، يحملون عليها الجثث ، ويتجهون بها نحو آبار القرية .. ثم يعودون وينقلون آخرين .. فأيقنت ان الدور لاحق بي .. فأخذت أفكر في احسن طريقة تخفي حياتي ، وتظهر موتي ، عندما يأتيني الدور.. فكنت كلما لمحت طريقة غُمَّ عليَّ ، ونسيتها ،فأعود للبحث عنها .. فاذا وجدتها افلتت من ذهني وعدت الوب عليها !.

وعند المغيب اخذ اليهود عرباتهم ، وغابوا ، قبل ان ينقلوا نصف الشهداء . . لكنهم تركوا منهم حراسـاً علينا يطوفون بين الاموات ..

ولقد دار في خلدي حينئذ ، انهم أجَّلوا اتمام العمل الى الصباح .. وانهم يتوقعون مفاجأة من قوة عربية تهاجمهم في الليل.. فالقدس قريبة ، وشباب دير ياسين كلهم فيها ..

ولما مضى من الليل بعضه ، عاد الحراس ، واجتمعوا وراءنا الى

جانب جدران الدور ، وجلسوا على الارض ، بعضهم الى جانب بعض ، يتحادثون فأسمع صوتهم ، ويضحكون فأسمع ضحكهم ، ويسكتون فلا اسمع حساً ولا حركة ..

إنهم اطمأنوا الى ان التعب في التجوال بين الجثث لا معنى له ، وان الاستراحة بعد جهد النهار حاجة ملحة تشدهم الى الجلوس ..

وفطنت الى انني ظفرت بفرصة الهرب ، وانني اذا ضيعتها فاتت ، وفاتت معها حياتي ..

فرتبت خطة الهرب اوضح ترتيب ، ثم زحفت على بطني ، واتجهت نحو الشرق .. حتى اذا صرت على بعد ، قدرت انه يحجب الهدف عن العين مهما كان الهدف كبيراً ، التفت نحو الحرس ، فوجدت الكون يلبس الليل ، فلا حرس ولا ضحايا ولا سهل ولا وعر ، غير الظلام...

عندئذ نهضت اركض ، شبه راكع ، ركضاً لا عهد لي بسرعته وانا منتصب ..

ولما دنوت من القدس ، كانت نجمة الصبح مرتفعة ، وكان نهر المجرة ممدوداً على الشرق والغرب بقليل من الانحراف ، فعلمت ان الفجر قد دنا من الطلوع ، وان عليّ ان اوجه وجهي نحو الشمال ، ثم انحدر

إلى الشرق ، عسى ان ادخل القدس من باب حطة ، واتجنب مخاطر باب الخليل وباب العمود ..

كنت امشي بين هبوط وصعود .. فاذا هبطت التفت يميناً ويساراً اخشى مفاجأة تعيدني الى المقابر ، واذا صعدت ظهرت امامي قبة الصخرة ومآذن المسجد الاقصي ، تستيقظ على ضوء الفجر بين الوان ترف رفيفاً كأنه نجوى الرسول في إسرائه .. فتنسل من قلبي يأساً ، وتعطيني رجاء ..

وعندما وصلت الى باب حطـة ، استندت الى السور ، وحمدت الله على السـلامة .. وكانت الشمس ما تزال متوارية وراء الأفق ، لا يظهر منها إلا شعاعها الغض الجديد ، يراوح بين أجنحـة الطير المحلقة في السماء ..

وما هي إلا دقائق ، حتى شعرت أنني غـير قادر على الوقوف ، غير قادر على المشي .. كأن الخوف الذي لازمني منذ أمس ، هو الذي كان يمدني بالقوة ، فلما ذهب ، ذهبت معه القوة ..

فجلست الى جدار « الصلاحية » ، استريح .. فأخذني نوم قهار لم أفق منه حتى سمعت صوتك .. فاذا أنا في المستشفى، وإذا أنت يابن أخي جالس الى جانبي ..

كان صوتك من صوت اهلي الذين ثكلت ، فلما سمعته سمعت

معه صوتهم جميعـــاً ، وما شككت في أننـا عدنا كما كنا ..
وصرت بين الاحياء ، بعدما كنت بين الاموات.. وهاهي صحتي تتقدم يوماً فيوماً !. ولولا الذين يعودونني ويحولون المستشفى الى مأتم ، لبلغت النقاهة منذ حين ..

وإني لأستمع الى عمي ،إذ تجاوبت أبهاء المستشفى بضوضاء لم تلبث ان وضحت عن بكاء وعويل ..

فقـال عمي : اسمع !. لقـد جاءوا !.

فدخلت علينا المعولة .. وهي صبية قد تشعث شعرها وتمزقت ثيابها.. فصرخت تقول :

ألا تعرف زوجي ؟.

قال : بلى .

قالت: وابنيَ .. ألا تعرفه ؟.

قال : بلى .

قالت: أرأيتهم ؟

قال : نهضت من بين القبور ..

قالت: ابني .. زوجي .. صــــارا في القبر .. ثم انفجرت تزغرد زغردة الأعراس ، بصوت حزين لا يسمعه احد حتى يحس ان ألحانها

تتصـــارع في جميع اجزاء جسمه صراعاً مراً ، يحسب معه ان رأسه يتدحرج من قمة الجبل الى قاع الوادي ..

ولما هدأت قالت : قبل اربع سنين ، كان عرسنا .. لم أغادر القرية إلا يوم المجزرة .. تركت زوجي محموماً ... وتركت عنده ابني ... نزلت الى القدس اشتري للبيت ما يلزمه ... ثم اتكأت على السرير تبكي بكاء كأنه حشرجة الانفاس في الصدر ...

فهدأتها .. ثم أمسكت بيدها .. ثم شيعتها الى باب المستشفى ..

فلما رجعتُ .. قال لي عمي : هـذه أم الطفل الذي دعس رأسه اليهود بالبصطار ..

ثم قال : يا بن أخي ... لاتثريب على المفجوعين ، أن يُعْوِلوا ولكنهم يرهقونني ... يعيدون اليّ رعدتي .. ولكم تمنيت لو كنت مثلهم ، سمعت بالمجزرة ولم أرها ... فالسامع غير الرائي ... الاول مستريب .. والثـــاني على يقين .. والريبة في النكبات نعمة تحجب عن المرء في فترات متقطعة على الاقل ، ألم الممض المرمض ... اما اليقين ، ولا يقين كالعيان ، فهو نقمة بديعة التصوير !. تصور الفجيعة في حذق ، وتلصق صورَهـــا بالسمع والبصر والعقل والقلب ،

إلصاقاً ، تعجز أقوى قوى الصبر والحزم ، عن زحزحتها عن النفس سنين طويلة ..

فالله أسأل أن اخرج من المستشفى صحيحاً ، وأن تكون نقاهتي خالصة من الضوضاء ..

ولما خرج عمي من المستشفى ، شيَّعَهُ طبيبُه وهو يقول له : نجوت من مجزرة دير ياسين وكنت المخبر عنها .. فاذكر ذلك واحمد الله تظفر ببعض العزاء .. فقد وقعت في فلسطين مجازر كثيرة في الأرجاء المنعزلة لم يسمع بها احد ، ولم ينج منها مخبر ..

* * *

كنت عند اليهود أسيرا

« املاها علي (ع - س)
رئيس ديوان الرملة »

ذهبنا من الرملة إلى اللد ، بشأن من شؤون الدفاع ، يوم السبت في ١١ تموز سنة ١٩٤٨ .. وكنا أربعة فتيان ، السائق واحد منا .. وما وصلنا اليها ، وأخذنا في العمل ، حتى حامت طائرات العدو في السماء ، وألقت مناشير ، تنذر اللد والرملة بالتسليم !.. فأسرعنا نرجع الى الرملة بلدنا ، نتعاون معها على هذه الطامة ..

وبينا كانت السيارة تجري مسرعة في شوارع اللد ، قال أحد الرفاق : هنا دار أخي .. لابد أن أودعه . . فربما كان كان اليوم آخر لقاء بيني وبينه .

ثم نزل من السيارة ، ودخل إحدى الدور ، وغاب أكثر من عشر دقائق !.. والدقيقة حينئذ ابطأ من اسبوع .. فلما خرج ، اعتذر يقول : زوج أخي اضطربت للانذار ، وهي حامل ، فأغمي عليها .. وتركتها تحت الخطر !..

فلم يأبه لاعتذاره أحد ، ومضت السيارة مسرعة لا تلوي على شيء ..

فلما وصلنا الى بلدتنا ، وجدناها قرأت الانذار ، وهبت للدفاع !.. فجمعت قواها ، ثم حشدتها عند مدخل المدينة المتوقع مجيء اليهود منه !..

وفي الظهيرة ، هاجمنا اليهود ، تتقدمهم المدرعات ، فاشتعلت معركة دامت ساعتين ، رجع على أثرها العدو ، يحمل جرحاه ، وقتلاه !.. واستشهد منا ثلاثة فتيان ، وجرح عشرة !..

ومضت ساعات ، ونحن مطمئنون لهذا النصر ، عاملون على تحصين مراكز الدفاع !..

في هذه الهدأة ، ذهبت قبيل الغروب ، إلى ضاحية المدينة، وكانت حامية من الجيش الاردني مرابطة فيها .. فسألت قائدها العون ، فاذا هو لايستطيع العون إلا بتسهيل سبيل النازحين !..

وفي الليل فوجئنا بهجوم عاصف تدعمه قوى ضخمة ، ألقت على الرملة قذائف وقنابل هدامة محرقة !.. فأخذ الموت يعصف بالأحياء ، يأخذ منها في ساعة واحدة مالم يكن ليأخذه في شهر ... واشتعل لهيب من النار في أماكن كثيرة ، يحرق المعاهد ، ويرفعها الى السماء بين الشرر والدخان !..

فما طلعت الشمس ، حتى كانت خطوط دفاعنا بيد اليهود فجنودهم ودباباتهم في مداخل الطرق . . والمجاهدون الشباب معظمهم صرعى في الشوارع والازقة .. وبقية السيوف يطلقون طلقاتهم الأخيرة ، من وراء جدار مهدم أو خندق محفور ... والشيوخ والنساء في البيوت ، يتضاغى بينهم الاطفال ، يرجون النصر فلا يجدونه إلا في حجور مرتعدة !.

في صحوة ذلك اليوم المشؤوم ، ارتفع صوت منادي المدينة، يصرخ بصوت يحمل مع هول الموقف ، إنذاراً من العدو ، يقول : يا أهل الرملة ، إلزموا بيوتكم !.. ولاتخرجوا منها !.. ثم عاد بعد ساعة ، ونادى : يا أهل الرملة إذهبوا جميعاً الى دار الحكومة ...

فأصبحنا ، والموت يذهب ويجيء بيننا ، وصوت المنادي في آذاننا ، كأننا نطل من القبور على صوت مالك ، يدعونا أن نلقي بأنفسنا في جحيم السعير ..

وما انقطع صوت المنادي ، حتى تفرق اليهود المسلحون ، على الدور والازقة يدفعون بالناس نحو دار الحكومة ، فمن تلكأ ، أوسعوه ضرباً بالبندقية ؛ فاذا وقع على الارض أجهزوا عليه بالرصاص ، ولحقوا بغيره ، يدفعونه الى الاسراع !..

بعد ساعتين اجتمعت المدينة عند دار الحكومة . . كنا عشرات الألوف ، بيننا النازحون من القرى المجاورة ، جاءوا يحتمون بنا ، فأصابهم ما أصابنا .

وبدأ الفرز .. فوضعوا الشيوخ والنساء والاطفال في جانب!. ثم امروهم أن يذهبوا الى بيوتهم ، يتزودون زاد الهجرة ثم يرحلون خلال اربع ساعات ..

أما الشباب فقيدوا بالسلاسل ، وكنت بينهم ، والقوا بهم في العراء ، الى جانب دار الحكومة ، وأحاطونا بالأسلاك الشائكة.. وكانت المعارك غير المتكافئة بالعدد والعدة ، قد حصدتنا ، فلم يبق منا سوى قرابة ستين شاباً ..

فجلسنا بين الاسلاك الشائكة ، على أرض مزيج من حجر ومدر ، تحت أشعة تموز المحرقة .. لانتكلم ، ولانهمس ، ولايقف نظرنا على بعضنا حتى يرجع ، ليطوف وراء معـــارك الليل ، وصوت المنادي ، والتحول السريع الى حياة تحمل هولاً وراءه أهوال .. فنضطرب ، ثم نفزع الى الصمت الحائر الحزين ..

وإني لصامت بين صامتين ، سمعت صوتاً يهتف بي بحنان وخوف .. فالتفت !.. فاذا أختي وراء الاسلاك ، فوثبت اليها .. وقبلتها قبلة المجير المستجير .. فبكت ، وهي تضع فوق يدي

المقيدتين ، رغيفين وقطعة جبن .. ثم قالت بصوت متقطع : الافران خراب ، خبزت الخبز أمك على موقد الغاز .. قبل ان ننزح .. وإني لاحقة بهم .. فهم في طريق الهجرة !..

فقلت لها وهي تهم بالرجوع : لم يبق لأبويك العاجزين معين سواك .. فأنت العون على عجزهما .. ثم اسرعتُ ، فودعتها ، أحبس الدمع أن يتفجر أمام طفلة ، أحاطت بها النكبات وهي ماتزال قريبة العهد بالمهد !..

ومر أهلنا المهاجرون أمامنا ، من الطريق التي يشرف عليها معتقلنا ، يمشون في خطى متثاقلة ، وقد نسج الغبار على الجفون، غلالة مهترئة سمراء مؤذية ، يبس تحتها بياض العين وسواده ؟..

فقد كان لكل واحد دفين في هذه الارض لم يجف دمه ، ولم يستقر في الخلد موته ، ومازالت النفس تلمحه بين الاحياء ، وان كان بين الشهداء !.

مرت أمي والى جانبها أبي وأختي يدور بصرهم على المعتقل ، يريدون ان يروني !.. فرأيتهم .. ووقفت أمد اليهم يديّ المغلولتين وتباطأوا .. ونهرهم الجنود .. فجاوزوا المعتقل من غير ان يروني !.

رأيت أمي وأبي ، محطمي الجسم ، قد انحنى ظهرهما ، وكانا قبل يومين منتصبي القامة قويين !.. فقد ثكلا في الليلة الفائتة

وحدها شابين ، صوتها في البيت أغرودة الخلود ، وابتسامتها رَوْح الرياض وريحانها !..

ولقد أتبعتهم بصري ، حتى غابوا ، يلحق بهم الغبار والتراب والظلام !..

وأقبل الليل ، فرقدت الظلمة على المعتقل ، ولكن أحداً من الاسرى لم تنم له عـــين .. حتى اذا طلع الفجر ، حُشرنا في سيارة ، ذهبت تنهب بنا الارض ، ونحن لا ندري مصيرنا : أهو طعام للأسماك في البحر .. أم ميتة مجهولة . . أم أشغال شاقة ..

مررنا بقرى عربية ليس فيهــا ديار ، وبقرى يهودية وقف أهلها يتفرجون علينا ، حتى وصلنا الى تل أبيب ، فطافت بنــا السيارة في جميع جوانبها ، وعرضنا على اهلها عرضاً مهيناً .. ففي كل شارع كان أحد الحرس ، يصرخ بأعلى صوته يقول :

هؤلاء بقية السيوف من شباب الرملة الذين كانوا يحسبون أنهم على عزة ومنعة .. أسرناهم بعدما غنمنا مدينتهم ، وأخرجنــا اهلها ، فاضحوا مهاجرين !..

فما بقي احد في تل أبيب ، لم يتفرج علينا ، ولم يرمنا بما لا ينطق به الا اللئام !..

وأخيراً ، وقفت السيارة ، في معسكر ، خص بالاسرى ، في بلدة عربية اسمها جليل !..

كان المعسكر أرضاً جرداء ، محوطة بسور من الاسلاك ، لا غطاء فيها ولا وطاء !.. نهارهـــا شمس محرقة ، وليلها برد قارس .. فمن أفاق على مغص في امعائه ، احتمل مغصه وكشف بطنه لحر الشمس ، لايرجو علاجاً إلا من حرها . . ومن أصيب بالتهاب اللوزتين ، وبح صوته صبر على الالتهـاب حتى يبرأ بلا علاج .. ومن ارتفعت حرارته ، لايعرف ماداؤه وما دواؤه ، حتى تهبط الحرارة ، مها طال الأمد على ارتفاعها ..

والطعام نصف رغيف في اليوم .. تأكله فتزداد جوعاً منذ تأكله !.. ثم تصبر الى اليوم الثاني ، لتظفر بهذه الوليمة الكبرى .. وأتونا يوماً بالفسيخ بدلاً من نصف الرغيف .. ثم قطعوا عنـا الماء !. فكان ماقاسينا بالعطش أقسى مما قاسينا من الجوع ... فالفسيخ لهيب في المعدة لايطفئه إلا الماء الكريم ..

أما الشرب فهو عجيب غريب . . إن له موعداً مضروباً ، واذناً خاصاً به !. فاذا جاء موعده ، وأذن لصاحب الحظ ان ان يشرب ، مشى نحو حفرة في المعسكر مملوءة بالماء ، وانبطح على حافتها ، يشرب كما تشرب الانعام ... أما إذا لم يؤذن له ، فعليه ان يبيت عطشان الى الموعد الثاني ..

ومن طلب الخلاء وجده قريباً ! .. فهو جرادل وضعت في المعسكر هنا وهناك ، تمتلىء منذ الضحى ، ويسيل مافيها على أطرافها ، وتبقى كذلك حتى المساء !. فاذا وصل اليها المضطر ، جلس على أعين الجميع وآذانهم !. فهم متبرمون به ، وهو مشغول بما لوث فخذيه منها . . والجميع يعيشون طوال النهار ، على هذه المشاهد ، بين الروائح الكريهة تصل اليهم ممزوجة بالجو الحار ، منسجمة مع أنغام تعلو وتهبط تحت الجالسين على الجرادل ..

فاذا امسى المساء ، وتشكلت برك حول الجرادل ، طلبوا الى أرق الشباب ، أن يحملها ويكبها خارج المعسكر ، ثم ينظف ما حولها من بقاياها .. وكان يحلو لهم ألا يقوم بهذا العمل سوى رئيس ديوان بلدية الرملة .. وهو شاب ناعم انيس . . فكان يذعن للأمر في هدوء وصبر .. وها أنا ذا أراه ، وقد أمسك بيده الجردل من حلقته ، وأماله نحو ظهره ، وَوَرَّبَ جذعه ، وأسرع الخطى ، يريد ان يخلص منه قبل ان يتساقط رذاذاً منه على ثيابه .. فاذا انتهى من الجرادل كلها عاد ينظف البرك من حولها .. فلا يتم عمله الا في ساعات هي أصعب ما لاقى في هذا الاسر !..

وبينما كنا نعيش في هذا الشقاء القاسي ، جمعنا مدير المعسكر ،

ذات مساء ، وألقى علينا خطبة دامت ساعتين ونصف الساعة ، دار معظمها حول عبقرية المدير الخطيب ، وفهمه دقائق القانون الدولي ، وقدرته على العمل به !..

ثم أنهى الخطاب يقول : أيها الأسرى !.. نفذنا اتفاقية جنيف بنصها وروحها عليكم ... ولم يبق منها سوى أن تنتخبوا منكم ، رئيساً يكون مسؤولاً عن إدارة المعسكر !..

وجرى الانتخاب ... فرفضتُ ، ورفض الجميع هذه الرئاسة ، ثم طال الرفض والهزل والضحك !.. فصرخ مدير المعسكر يقول : لا تهزلوا !.. ولا تبطئوا !.. فالأمر جد ، ولا بد من هذا الانتخاب ...

فالتفت الجميع إليّ ، يقولون لي : اصبر !.. واحتمل !... وخلصنا من هذه المهزلة !.. فأذعنت ... أقول بيني ، وبين نفسي لعلي استطيع ان أسكب في تجاليد الدمية ماء الحياة !..

فلما انتخبت رئيساً ، جمعت أوراق الانتخاب ، وأعطيتها لمدير المعسكر ... فأخذها مشرق الوجه فرحاً ... فطلبت إليه ان يدبر للأسرى قطناً وقليلاً من الاسبرتو يستعين بها الاسرى على الجروح .. فرفع رأسه ، وكان مشغولاً بأوراق الانتخاب .. وجعلت عينه ترفعني ، وتضعني ، ثم تدور ، فلا تلتقي بي ولا

بالاوراق !.. فقلت بيني وبين نفسي : لقد جُنَّ صاحبنا ورب الكعبة ...

وبعد صمت طويل قال لي قولاً لو سجلته لظن القارىء أنني أبالغ في لؤم هؤلاء السفاحين !..

فتركته ، وخرجت من عنده !.. ثم جعلت أقدم تقريراً عن آلام الاسرى الى كل مدير للمعسكر جديد !..

كان هؤلاء المديرون يتغيرون آناً بعد آن !.. فلم يكن لهذه التقارير صدى سوى كلمات مُهينة اسمعها من بعضهم ، وصمت كالموت أجده في بعضهم الآخر !..

وماذا تعمل تقاريري ، في مثل (ليفي) الاعرج ، وقد أضحى مديراً للمعتقل ... وكان قبل هذه النكبة ، يتسكع بين دواوين حكومة الرملة في هوان !.. لقد فوجئنا به ، يقف بيننا ويبتسم ابتسامة صفراء متجبرة ، يقول : كنت أريد أن يكون بينكم جميع اصدقائي من أهل الرملة ، وعلى رأسهم القائمقام ؛ ثم يثرثر ساعات ، ثم يدير ظهره ، وهو يترنح ترنح الحقود اللئيم !..

وجاء بعده موسى دويك !.. وكان هذا لا يحلو له أن يقرأ التفقد ، إلا اذا ركعنا أمامه في صف واحد !.. وإلا اذا تعمد الابطاء بالعد ، حتى تفتر ركب الراكعين ويلتهب ظهرهم بأشعة الشمس !..

ورغم ذلك قدمت له تقريراً عن حيـاة المعتقل ، وصبرت أرقب أثره فيه !..

فجاءنا يوماً جندي يقول : أنا رسول موسى دويك اليـكم ، لأبشركم أن طعامكـم ، قد تحسن ، فعليـكم ان تقفوا صفاً واحداً لاستلام الطعام .

فقلت بيني وبين نفسي : هذا من أثر التقرير الذي قدمت له ..

فوقفنا في صف واحد !.. وأخذنا نمر عليه واحـــداً بعد واحد كما طلب ... ووصل الدور إليّ بعد صبر طويل !.. فاذا الطعام المتحسن لايزيد على حبّة بندورة ... فناولني إياها فنظرت اليها ، والى اليهودي نظرة غاضبة حاقدة .. ثم ألقيتها على وجهه ، فجاءت على جبينه ، ونزل ماؤها على عينيه ... فهجم عـــليّ ، مغمض العينين ، وأهوى بالفأس التي بيده على كتفي !.. فأحسست بألم أفقدني الصواب ، فقفزت عليه ، وأمسكت به من قدميه ، وألقيته على الارض فجاء ممدوداً أمامي لايتحرك خوفاً ورعدة ..

ورأى ذلك أحـــد الحرس ، فصفر صفيراً عالياً ، فأجاب الجنود برصاص تطاير فوق الرؤوس ... فتفرق الاسرى واختلطت بهم ، أتوارى بين الجموع !..

فجرى تحقيق دام اياماً ، على غير جدوى ، لأن خصمي

الغبي لم يستطع ان يميزني عن غيري ، ولأن أحداً من الاسرى لم يذكر اسمي ..

ولكنهم وزعونا في اليوم الثاني على الشغل !.. فأرسل ناس للعمل في الفرن ، وآخرون في المطبخ ، وناس في الحمام ، أو الحقول ، أو الخنادق !..

كان العمل لامفر منه !.. وكانت الاجور قطعة خبز لمن عمل في الفرن ، وقطعة صابون لمن عمل في الحمام ، وسيكارتين أو حذاء عتيقاً أو علبة تنك فارغة لمن عمل في الحقول ، أو الخنادق ، أو المعمل ...

فكنا نعود في المساء ، نتبادل هـــذه السلع !... فشارب الدخان يبادل قطعة الخبز بالسيكارتين .. وصاحب الحذاء المهترىء يبادله بقطعة من الصابون ... وصاحب قطعة الخبز يبادلها بعلبة التنك !..

هذه الاجور العالية ، كانت ثروة كبرى !... فالذي حصل على الحذاء المهترىء ، استمتع به استمتاع الرافه اذا حصل على سيارة الكاديلاك ... فقد أنقذت الحذاء رجليه من الحفا الدائم ومن حرارة الارض ... ومن حصل على علبة من التنك فارغة ، خلص من الشرب منبطحاً على الارض .. ومن ظفر بسيكارتين

أضحى يضطجع على الارض في البكور والاصائل يتوسد مرفقه والسيكارة في فمه ...

كذلك كنا نحوّلُ العذاب الى متع ... والارهاق الى شبه هناء فلا نضرع ولا نضعف !.. كنا كالاسود في القفص ، نزدري الاسر ، ونقوم بما يطلب الينا ، في أنفـــة القوي ، وتغافل الالمعي ... كنا نشعر عند مر العذاب أن قوة من أمتنا ، تسكن في عروقنا ودمائنا !.. فنكظم الغيـظ ، ونحتمل الضيم بصبر عجيب .. كنا نعرف أننا بين أظفار قوم نبتوا في السبّاخ ألام المراعي ، فورثوا الشحّ والجبن الوضيع من الغرائز !.. كنا نعرف أنهم ثعلب الكرم وحرباؤها ، يتماوتون في الضحى ، ويتلونون بألوان الكرام في الظهيرة .. فاذا جنّ عليهم الليل ، انقلبوا الى عدو حاقد على كل انسان !..

وكذلك عشنا حتى اليوم الاخير من الاسر .. بل ان يومنا الاخير كان يوماً مشهوداً ..

فقد طلب إلينا في ذلك اليوم ، أن نجتمع في صف واحد وكان الجو حاراً .. فانتظرنا ساعتين ، حتى أقبل علينا ضابط ، غليظ الرقبة ، ضيق المنكبين ، يحمل بيـــده غصناً ثخيناً من أغصان اللوز ، يهزه ويصرخ : أيها العرب !.. اسمعوا وعوا !..

فاني قائل لكم كلمة الوداع في يومكم الاخير عند اسرائيل .. فأصغى إليه الاسرى في صمت !..

ثم اقترب منا ، وطلب إلينا الجلوس على الارض .. فجلسنا .. فأمعنت فيه النظر ، فاذا هو « مزراحي » الذي أعرف . . وكان يعمل راعياً للغنم عند أحد تجار اليهود ، الذين كانوا يأتون الى سوق الغنم في الرملة لشراء الماشية ، واذا هو قد ازداد لؤماً وخسة بعد هـذه الشارات التي يحمل ، وبعد لباس الضابط الذي يلبس ..

واخذ يتكلم بصوت خشن لايختلف عن صوت كلبه الذي كان يعاونه في قيادة الشاة ... فقال بلهجة قروية عربية سليمة !.. أحب ان أسجل هنا لعنة الله على الحاج أمين الحسيني ! .. ولعنة أخرى على الملك فاروق .. وثالثة على عبد الرحمن عزام أمين الجامعة.. ورابعة .. وخامسة .. وما زال يلعن حتى أتى على ذكر اسماء مايزيد على عشرين عربياً ، كانت اسماؤهم تذكر في الصحف وعلى الالسن .. وختم هـذه اللعنات بقوله : وأخيراً أسجل لعنة الله عليكم جميعاً .

فلم يتم كلامـــه .. حتى قام صاحبنا علي رجب ، وهو من شباب الرملة الشجعان ، فقال : إني أرد على تحيـة الضابط

فأقول : ألا لعنة الله على وايزمن رئيس الدولة المزعومة ، وعلى ابن غوريون !. وأخيراً ألا لعنة الله على بني اسرائيل لعنة تشملهم جميعاً ..

هنالك قفز مزراحي على صاحبنا ، علي رجب ، فوقفنا دونه ، فلم يستطع الوصول اليه .. وطلبتُ إلى الاسرى بصفتي رئيسهم ، ان يتفرقوا في المعسكر !.

ولكن قوة من الجيش اسرعت نحونا ، وهجمت على علي رجب وقبضت عليه ، وفصلته عنا ، وذهبت به الى حيث لاندري .

وبعد قليل ، رجعوا الينا ، يطلبون ان ننتظم في الصفوف لنركب السيارات المعدة لنقلنا الى المنطقة العربية .. ثم قالوا : غداً موعد تبادل الاسرى ، فاذا تأخرتم فاتكم حظ لاتظفرون به بعد اليوم !.

ففاجأناهم بصوت واحد نقول : لاسفر إلا مع علي رجب !. ثم تفرقنا في المعسكر نصرخ صرخة العزم على الاضراب عن السفر !.. ومضت ثلاث ساعات ، وهم يحاولون حل الاضراب ، ونحن نزداد عزماً في طلب علي رجب .

عندئذ طلبوا إلي أن أذهب الى القائد ، لحل هذه العقدة .. فذهبت !. فاذا الذي يطلبني هو القائد (روبرت) أحـــد

الذين ردوني في جبروت يوم قدمت له تقريراً عن سوء الحياة في المعسكر .. وإذا هو الآن متلطف معي .. يحـــادثني بالقضية اليهودية والقضية العربية ، كأنه يريد الخير لنا اكثر مما يريده لقومه !. ومازال يتلطف ، حتى انتقل الى الاضراب .

فقلت في صراحة صادقة : إذا كان لي بعض السلطان على الاسرى ، فهو متبخر ساعة اطلب اليهم أن يحلوا الاضراب .. فالذي يؤثر الموت على ان يخذل أخاه ، لا تنفع فيه الرقى ولا التعاويذ .. بل لاينفع السيف .

فعاد الى حديثه من اوله !. فأجبته جوابي .. وصمتُ وصمتَ .

وأخيراً اذعن القائد ، وأمر بالافراج عن صاحبنا !. وودعنا الارض الطيبة التي ولدنا فيها ونشأنا .. فلما وصلنا الى المنطقة العربية من القدس ، سُجلت اسماؤنا في عداد اللاجئين !..



من حمص إلى الأخوين

« تحدث الي بها (ج - ع)
من أهالي حيفا ، وقد التقيت به في
قلعة حمص سنة ١٩٥١ ، وكانت
مسكناً للنازحين »

احتدمت معارك عنيفة في حيفا ليلة ١٩٤٨/٢/١٣ .. تصارعت فيها اصوات المدافع والرصاص والقنابل مع الغبار والصراخ والعويل وكنا على سفرة الطعام ، نأكل في وقت متأخر ..

فمن كانت لقمته في فمه ، وقفت لقمته في فمه ، ومن كانت لقمته في يده ، وقعت من يده ! . ثم لم يلبث الغبار ان ملأ الغرفة ، وكاد يغطي الطعام بغلالة سوداء من الدخان والغبار !.

وإنا لنغلق النوافذ ، قفز ابني احمد نحو المعركة ، وكانت سنه لاتزيد على سبع عشرة سنة ، فلم يفطن له أحد حتي أغلق باب الدار وراءه !.. فطارت عينا أمه عليه ، وركضنا نحو الباب ، نهتف به ، ولكنه غاب ، ولم يعرف احد كيف غاب !

فحاولت أن ألحق به ، وكنت في النقاهــة ، فنهض أخوه حسن وكان في العشرين من العمر ، وخرج يقـول : لا تخرج ياأبت ، أنا آتيكم به .

فجلست والأم وطفلة لنــا ابنة ست سنين ننتظر عودتهما .. فتأخرا على غير عادتهما .. لقد كانا ، قبل تلك الليلة ، لايتأخران اذا خرجا ، ولو اشتركا بالمعركة .

فلما مضى من الليل أكثره ، اضطربنا .. فمــا نستقر في الوقوف ، ولا في القعود .. فأخذنا نفتــح باب الدار ، ونمشي قليلاً ، ثم نعود على غير جدوى ..

وفي الصباح ، وقفت الأم على باب الدار ، ترقب من يمر ، تسأله عنهما ، فلا يجيبها أحد .. ومن التفت إليها بسط يديه ، ثم قلب كفيه ، وبدا على وجه الجيران ، أنه واقــع في شبه ماهي واقعة فيه ..

ثم مضت أيام ، ونحن على هذه الحــال ، وهما لم يعودا .. فضاع مصيرهما علينا ، ويئسنا من رجوعهما .. فأخذ الأم ذهول ، تحسبها معه في مس من الخبل أو الجنون .. فاذا رقدت خاطبت ولديها وهي راقدة ، كأنها تعيش معهما ؛ واذا استيقظت ، وجمت طويلاً ، ثم بكت بكاء مراً وقالت :

من حسّ لي الاخوين كالغصنين أو من راهما .

ثم اخذت تعيد هذا القول ، وتبكي ، كأنها لم تذكر من كل ما عرفت من الشعر غير هذا البيت ..

ولم يكن من اليسير أن نظفر بخبر عنها .. لأن المعارك الطاحنة دامت أكثر من اسبوعين .. ولأن جيراننا العرب معظمهم رحلوا ، أو رُحِّلوا .. ولأن خروجي من البيت ، يدفعني الى مصير ، يترك البيت المفجوع ، بلا عائل في هذا الخضم من الرزايا ..

فلما هدأت المعارك بعـــد ثمانية أيام ، وأضحى باستطاعتي أنا العاجز المفجوع ، ان أخرج من البيت ، جعلت أغيب قليلاً ثم أعود ، وقد زينت أخباراً عن الولدين تعيد للأم بعض الرجاء ..

وما زلت كذلك حتى رجع الى الأم بعض رشدها ، وحتى تزحزح عنها الذهول ، واستعادت بعض قوتها ..

وخرجت ذات صباح ، وكان مضى ستة اشهر على ضياع الولدين وطفت قليلاً حول البيت .. فلما عدت ، دخلت الغرفة ، ولم يكن فيها أحد ، وجعلت أرين رجاء جديداً ..

وبينا أنا كذلك ، دق جرس باب الدار ، ففتحت الصغيرة الباب .. فاذا الداخل ولدنا حسن يحمل أخته بين يديه ، ويقبلها فقفزت ، أقبله ، وأهتف بأمه أن تجيء .. وكانت في المطبخ .. فالتفتت فاذا ابنها أمامها بوجهه وعينيه ودمه .. فيبست في مكانها

لاتتقدم ولا تتأخر .. فأقبل عليهـا حسن ، يقبل صدرهـــا ويديها .. وارتمت على رأسه تشم شعره ، وتلثم جبينه ، وتضمه الى صدرها ، وتغيب في ضمه .. ثم دخلنا جميعنـا الغرفة .. وأمه تمسك بكمه ، كأنها تخاف ان يضيع بين يديها ..

فقال حسن : كيف حالك ياأماه ..

الأم : أنت حسن ..؟

حسن : أنا حسن .. وأنت أمي

الأم : لكم رأيتكما أنت وأخوك الى جانبي ، ولكم حدثتكما وفرحت بلقائكما !.. ثم أفقت فاذا ما كنت فيه لم يكن إلا حلماً من أحلام الكرى !.

حسن : نحن في يقظة يا أماه !. وها أنا ذا أمامك ، صوتي في اذنك ، وصوتك في أذني !. وقد طويت ثلاثة أيام بلياليهـا مشياً على الاقدام ، حتى صرت بين يديك !.

الأم : وأخوك احمد يا حسن ؟.

حسن : لابد ان يلحق بي !.

الأم : لاحق بك ؟.

حسن : نعم !. ولقد قاسيت مالم أكن أتوقع من ارهاق !.

« وماذا يحدثها عن أخيه ، وهو لم يره مطلقاً ، ولم يلتق به ،

فخير له ان يكتم حزنه على مصير أخيه المجهول ، ويأخذ في التحدث عن نفسه ».

الأم : هل جعت ؟. هل عطشت ؟.

حسن : أنا الآن شبعان ريان.

الام : هل خفت ، هل جرحت ؟

حسن : ما الجوع ، ماالعطش ، ما الخوف ، ماهي الجراح؟ حسبي أنني رأيتكم سالمين .. فقد خرجت من بينكم الى المعركة ، فاذا أنا بين معارك الموت .. فكم من فتى وفتاة دفنوا أمامي تحت الهدم .. وكم عجوز وشيخ تركتهم يواريهم التراب ..ولكم مر بي من أبطال من العرب انقضوا على الموت ، والموت يحوطهم فما زالوا في صراع معه حتى انجلت المعركة ، فاذا حولي ناس مهشمون ، وناس سالمون ؛ وآخرون حائرون مايدرون ماذا يفعلون ، واذا الجنود من الانكليز واليهود ، قد أخذوا علينا الطرق !. ألا طريقاً واحدة تؤدي الى البحر ، دفعونا اليها بالحراب، فركبنا البحر قسراً مع الراكبين !.

الأم : كانت روحي معكما ، وكان بصري وراءكما !. كنت أناجيك فأقول : أأنت نائم ، أم أنت يقظان ؟. أيغطيك احد في الليل ، أم ترقد بلا غطاء ووطاء ؟. فاذا ذكرت الحياة والموت ،

غصت الذكرى في أعماق نفسي ، وشرقت بها ، ثم غرقت في وجوم يائس أليم !.

ثم تصمت الأم وتغمض عينيها ، كأن ذلك اليأس الأليم قد هزها الآن ، كما كان يهزها من قبل !. وينتبه حسن فيقول : مالك صامتة يا أماه !.

الأم : دعني اطرد كرب الفراق بفرح اللقاء !. ثم تعود الي صمتها ، ثم تنتبه فتقول :

ماذا تشتهي ياحسن ؟

حسن : لقد نلت بلقائكم كل ما أشتهي .

الأم : وهل بعد هذا اللقاء فراق ؟

حسن : يصمت ..

الأم : ننتظر وصول أخيك ، ونسافر معاً ..

حسن : وأبي وأختي ..

الأم : نأخذهما معنا .

حسن : والحقل والدار ؟

الأم : ما الحقل وما الدار ؟

حسن : يأخذهما اليهود ، وننتقل من جحيم العدو الى جحيم العوز!

وتخرج الأم ، ثم تعود ، ومعهـــا درج ، جمعت فيه كل ماغصت عن أكله ، فاحتفظت به لولديها وقالت :

وأخوك احمد ، ليته جاء معك ، فأكل من هذا كله !.

حسن : أخي احمد !

الأم : لقد خرجت تبحث عنه .. فغبتما كما يغيب النهار

الاب : إحمدي الله على عودة ولدنا .

الأم : الحمد لله !.

الأب : ماذا تعرف عن اخيك احمد ؟

حسن : أعرف .. أعرف . . أما أصغيتم الى اذاعات يسأل فيها النازحون عن اهلهم وذويهم .

الأب : استمعنا كثيراً فلم نسمع عنك او عنه شيئاً .

حسن : سألت عنكم كثيراً ، وأخبرتكم كثيراً ، فلم أسمع لكم صوتاً .. وأخي لاشك بحث عنكم ، فطار بحثه واسمه في الأجواء .. فعرفته السهول والاودية ، فسمع به من يعرفه ، ومن لا يعرفه ، ثم ارتفع اسمه الى السماء ، بعد ما سمعت به الانس والجن ، ولكنكم لم تسمعوه .

الأب : قلبي يقول لي : إنه من الاحياء .

الأم : من الاحياء ؟

حسن : مافي ذلك ريب .

الأب : مافي ذلك ريب .

حسن : هل نستطيع الليلة ان نذهب الى جارنا عبد الكريم ؟

الأب : لاسبيل الى ذلك .. فبعض جيراننا استشهد ،وبعضهم غاب .. وهو وأهله من الغائبين .

حسن : ألم يبق في الحارة جار نعرفه ؟

الأب : بيت او بيتان .. بعيدان عنا ..

حسن : وهذا البيت الذي الى جانبنا ؟

الأب : يهود ..

حسن : والذي وراءنا ؟

الأب : يهود !.

حسن : والبستان الذي كنا نلعب فيه ؟

الأب : يلعب فيه اولاد اليهود ..

حسن : إذن اصبحت سجين هذا البيت ..

الأب « لايجيب بغير الصمت »

حسن : يطرق طويلاً .. ثم يقول : أأصبحنا غرباء في بلادنا وأحيائنا ودورنا ؟. لا لدات ، ولا رفاق ، ولا أصدقاء ، ولا

أقرباء .. أبين يوم وليلة يبدل أهل الارض بغرباء عن أهل الارض .. ثم يزفر زفرة حرّى ويقول : إسمع ياجنكيز .. إسمع يا أتيللا .. اسمعوا يامن سميتم وحوشاً عاشوا في ظلمات التاريخ.. لقد أحرقتم ودمرتم واغرقتم ؛ ولكن الاقطار التي اجتحتموها ، مايزال أهلها يعيشون فيها حتى اليوم .. ينعمون بخيراتها .. ويرفهون ويبنون .. ويكثرون .. واسمعي يازلازل ، ياصماء ، ياعمياء ، يابكماء .. أنت تحرقين .. وتدمرين . . وتغرقين .. وهاهي مأواك اليابان ، مايزال أهلها ينعمون بخيرات بلادهم ، ويبنون ، ويرفهون و ... ويكثرون ..

فما بال الصهاينة ، ومن ورائهم الانكليز والامريكان ، يستأصلون قطراً كاملاً أهله وأمه وأباه ، بعدما يحرقون ويدمرون ويغرقون .. ثم يتباهون بالحضارة ، والعلم ، والنور ..

الأب : هؤلاء شر من آتيللا وجنكيز ، بل هم شر من هولاكو وتيمور .. شر من الزلازل العمياء البكماء الصماء ..

حسن : إذن لا خروج لي من البيت .

الأب : صامت ..

حسن : دخلت بلا جواز .

الأب : لاتخف يابني ..

حسن : أأخاف ؟ أأخاف ؟

الأب : أنت الأمن والأمان .

حسن : وخطي ؟

الأب : ذهبت أيام ذهبت .

حسن : هل نزحت ؟ هل جرحت ؟

الأب : نزحت أسرتها ، وهي الآن في دمشق .

حسن « بينه وبين نفسه » : ليتني بحثت عنها .

الأب : دعنا من الوجوم ، وحدثنا كيف كانت طريقك الينا .

حسن : « همساً » أتحدث اليك في غيبة أمي ..

الأم : عرفت ماتهامسون به .. تحدث .. أنا أمك .. أنا المجاهدين ..

حسن : اشتقت الى امي وابي واختي .. واشتقت أن أرى خطي فأخذت طريقي في الجبال .. أتجنب المزارع والدساكر امشي في الليل أنام في النهار .. لم أخف حتى وصلت الى بلدي فقد خفت ان افاجأ بما فوجىء به صديقي نزار .. فقد اقتحم ما اقتحمت ، وخاطر بالعـودة كما خاطرت ، ووصل الى داره ضحوة النهار كما وصلت .. فلما فتح له باب الدار ، فتحـه صبيان غربيان ، يسألانه بالعبرية ماذا يريد ؟ فأجاب : إنني غلطان.

كان نزار يعرف العبرية ، فنجـا من موت كان ينتظره في البيت الذي درج فيه .. نجا ليصل المخاوف بالمخاوف ، والجهد بالجهد ، والخوف بالخوف ، والفراق بالفراق .. ليعود عن طريق الهلاك الذي جاء منه .. نجا كما ينجو الذي تسلق شجرة هرباً من الطوفان ، فلما أمسك بالاغصان ، واطمأن ، تكسرت الاغصان فاذا هو في فم الطوفان ..

لذلك وقفت أنفاسي على باب دارنا ، ساعـة وصلت الى باب الدار .. حتى اذا سمعت صوتاً عربيـــاً ، تنفست واطمأننت ، وزال التعب ، والجوع ، وطـار الخوف .. وهـأنذا أنـعم بين أمي وأبي وأختي .. فاذا عدت بعد اسبوع ، فسأعود مطمئن البال..

وبعـــد ثلاثة أيام ، كانت الأسرة على سفرة الفطور في الصباح ، وكانت الاذاعة تذيع ، وكانوا يسمعون لها صامتين .. فاذا بين اخبارها رسالة من احمد تقول : أنا الآن في دمشق ، صحتي جيدة أخبروني عن صحتكم ..

وما انتهى الخبر حتى ترامى الأبوان على حسن يقبلانه ، ويقولان بصوت واحد : الآن تمَّت الفرحة ياحسن ..

حسن : نعم .. وسنلتقي جميعاً في دمشق ...

فهرس

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر بدمشق

مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١